رواية

GRAVE NEW WORLD

مقابر الأحياء

ضياء الدين خليفة



رواية

مقابر الأحياء

ضياء الدين خليفة



إهداء إلى ندا..

إلى أن تذوب صفحات هذا الكتاب مع الزمن،

وينساني الناس، ستظلين الوحيدة.

شكر واجب..

إنه شعور يملأ الكاتب بالفخر والعزيمة والسعادة عندما يخبره أحدهم أنّه كاتبه المفضّل.

لذلك، شكرًا جزيلًا لك يا صديقي الذي أراسله أمام العالم أجمع، فلولا رسالتك لما نشر هذا الكتاب أبدًا.

الفصـــل الأول

1

بقي أسبوع على يوم سباتي، بالرغم من أنني دخلت في حالة السبات مرات عدة، إلا أني موقن بأن هذه المرة ستكون الأخيرة، ولذلك قررت أن أكتب لكم كل شيء في هذه الأيام المعدودة، وسأحكي بأدق التفاصيل، لأنهم يعبثون بالأحداث، ويغيرون الماضي، ويشكلونه أكاذيب مصفوفة صفحات، يتم تغليفها ثم يدعونها كتب التاريخ، ولعلك تتساءل لماذا ونحن في النصف الثاني من القرن الواحد والعشرين أكتب هذا على ورق، لماذا لم أنشره مثلاً على أحد مواقع التواصل، أو حتى أصور فيديو لأنشره في أي مكان، لأنهم يا صديقي يعبثون بكل شيء، ويغيرون أي شيء، ولكن سيأتي يوم أكيد وتلمس فيه أصابع تلك الصفحات، ويقرأ أحدهم تلك الكلمات، ولا يهم متى، ولا يهم أين سأكون في ذلك الحين، ربما سأكون مسجوناً أو مقتولاً، أو تجدونني أنا نفسي أنفي ما تقرأه اليوم على لساني في تلك الصفحات، لأنهم سوف يرغمونني على ذلك، ولكن أريدك في النهاية أن تُعمل عقلك، وأن تحكم أنت بنفسك أين يمكن أن تكمن الحقيقة، ثم تنشر هذا الكتاب الذي أنت بصدد أن تقرأه بأي وسيلة، لأن أبعد وسائل النشر عن أيديهم هو الكتاب، ذلك لأنهم يعلمون أن الناس لا يقرؤون.

أعتذر عن هذه البداية السريعة ولكن لا أريد أن أسهب في المقدمات..

ففي رأسي العديد من الوقائع التي يجب أن أسردها، ولا وقت للثرثرة...

أنا يس، "ياسين يزيد يحيى" لا أفهم سر حب عائلتي في أسماء تبدأ بحرف الياء، ولكنها عادة أسرية غريبة، أعمل طبيب طوارئ، أعيش في القاهرة، وفي أوائل الثلاثينات من عمري، لو كنت تقرأ هذا النص في وقت قريب من كتابته فأنت بالتأكيد تعرفني، سواء كنت تبغضني أو تعتبرني بطلًا قوميًا، ولكن إن مضي وقت على هذا، فلن يبقى مني في ذاكرة التاريخ إلا اسم غريب في سجل الوفيات، ذلك لأنني لم أخضع ولم ألتزم بما وجب علي أن ألتزم به، بعد انتهاء النصف الأول من القرن الواحد والعشرين، وقبل بضع سنوات من اليوم الذي أكتب فيه هذا الكلام، وقع العالم في أحد أكبر الكوارث الاقتصادية على مر التاريخ، والذي كان بداية الطريق لذلك النظام العالمي الجديد الذي وصلنا إليه، والذي أنا بصدد أن أحكي عنه بأدق التفاصيل.

ظهرت الكارثة الإقتصادية وكأنها بقعة داكنة سقطت على خريطة العالم وتوسعت، فلم تسلم منها أي أرض، ولم نكن نتوقع أبدا أن تصل لهذا الحد، أو أن اقتصاد العالم قد يتداعى، عادة ما كانت الصحف تبحث عن المتخصصين من المتلطفين أصحاب الآراء المبهجة الذين كانوا على استعداد لإعطاء تصريح بأنهم لا يتوقعون عقبات في المستقبل، وذلك ما يحدث عادة من بث الأمل الكاذب قبل أغلب الكوارث الإقتصادية وعلى مر التاريخ، وعالمنا يعيش على ما يكتب في الصحافة، رغم أن مؤشرات هذا التداعي كانت كثيرة، وأغلبها كان واضحًا مثل قرص الشمس، تمادت البنوك على مدار عقود متراكمة في وضع أرقام وهمية تمثل عملات ليس لها مقابل مادي، خاصة مع انخفاض التعامل بالعملات الورقية في الأيام

الأخيرة، والترويج للتعامل ببطاقات الدفع، لم تصبح العملات سوى أرقام يمكن تعديلها بضغطة زر، فأصبحت هناك فقاعات من أرقام بنكية وهمية، ومع أول كارثة فاحت روائح العفن من البنوك.

كانت الكارثة عبارة عن ضربات متتالية وسريعة، إن عدد سكان قد العالم تضاعف بقوة، وبدأت تتضح بعض ظواهر الغلاء للأطعمة التي لم تعد كثافة إنتاجها تسد جوع الشعوب، فكلما دارت عقارب الساعة، يزداد الناس عددًا، وتبور الأراضي الزراعية، ويزحف العمران، كان من الواضح أن عجلة النمو السكاني قد سبقت النمو الاقتصادي بكثير، ومع ازدياد الأموال التي انخفضت قيمتها بنسب رهيبة، ومع احتياج الناس لشراء أطعمة لم تعد تكفي أموالهم ولا سد جوعهم، حدث تضخم رهيب، وكأن كل ترس في ماكينة الاقتصاد العالمي قد تعطل، البنوك والمزارع والمصانع والتجارة كلها أفلست، سلع أصبح سعرها زهيدًا جدًّا لعدم الإقبال عليها، وسلع أخرى أصبحت حكرًا للأغنياء، الذين قد تضاءل عددهم بنسب هائلة، وأهم هذه السلع كان الأطعمة غير الفاسدة.

أذكر تلك الأيام في القاهرة، ورغم محاولة القنوات الإعلامية التهدئة من روع الناس، إلا أن الوضع كان أكبر من المحتمل، كل ساعة شخص يُغشى عليه في الطريق، فيحضرونه إلينا في المستشفى التي كنت أعمل فيها بقسم الطوارئ، ولم أكن أضيع وقتًا في عرضه على أجهزة الفحص، ولم أكن أسأله أي أسئلة، كنت أعرف علته مسبقًا، الجوع! وعندما يستعيد وعيه، أعطيه شيئًا يأكله، في البداية سمعنا عن هذا النبات المتطفل الجديد، يسمونه الهالوك، أو خبز الشيطان، بدأت حكايته عندما طورت شركات الهندسة الوراثية الصفات الجينية لأغلب أنواع البذور بتقنيات حديثة أظهرت لها تطورًا ملحوظًا، وأصبحت النباتات مقاومة للمكافحات

الكيماوية على عكس نباتات أخرى ضارة، وأصبحت كبيرة الحجم بطيئة التلف وعالية الكفاءة، ولكن ما حدث من مفاجأة هو ظهور نوع جديد من نبات أو فطر اسمه الهالوك، الذي اكتسب بعض الصفات من النباتات المعدلة عن طريق الخطأ، فأصبح مقاومًا للمكافحة الكيماوية، وأصبح أقوى بكثير من صورته السابقة، سريع النمو، سريع الانتشار، ويتطفل على أغلب وأهم المحاصيل الزراعية مثل الفول والذرة والقمح والبرسيم والأرز والطماطم وغيرهم، فيقتل النبات ويجعل لونه أسود وكأنه محترق، وانتشر هذا النوع الشيطاني في شتى أرجاء العالم، وأصبح التخلص منه تمامًا معضلة يستعصى حلها إلى اليوم، فهو نبتة بزورها كثيفة وخفيفة جدًا تنتشر في الهواء أو الماء وتترك عددًا كبيرًا منها داخل التربة، لتخرج من جديد إن تم اقتلاعها وبصورة أكثر كثافة، مثل أسطورة وحش الهيدرا الذي إذا قطعت رأسه يخرج مكانها اثنين، يتطفل الهالوك إجباريًا على مختلف المحاصيل الزراعية مهما كان فصيلها، فتذبل النبتة الأصلية لينمو الهالوك غير الصالح للأكل، والمقاوم للمبيدات، لقد تصدّرت أخبار انتشار هذا النبات الشيطاني على قمة المشاهدات، وتسبب في انتشار الغلاء بين أغلب السلع الزراعية والأطعمة، قام الهالوك الجديد بغزو الصين أولاً، ومنها إلى سائر بلدان العالم، وتحدث البعض عن وجود مؤامرة كبرى لخلق هذا النبات وضرب الزراعة في شتى أرجاء الأرض، وبرر البعض الآخر بمن المستفيد بشيء من هذا القبيل.

تآمر الطقس مع الكارثة في أفريقيا، إن لم يختلف الحال كثيرًا في أغلب القارات، فقد قلّت معدلات هطول الأمطار على السهول العظمى، حتى انخفضت تحت المستوى الضروري للإبقاء على المحاصيل، انخفض

منسوب النيل حتى اقترب من الجفاف، وسرعان ما جفت التربة وتشققت، وأصبحت تذروها الرياح بسهولة، ومع ازدياد الكثافة السكانية، وتدهور الاقتصاد، ضرب الانهيار في البداية بنوك أمريكا والصين بقسوة، وبدت الكارثة وكأنها فيروس مُعدٍ يتناقل بين الدول، فتناقلت الأنباء حدوث ركود في اليابان، إنجلترا، ألمانيا، روسيا، إيطاليا، بولندا، فرنسا، أستراليا، كندا.

وقع العالم في شراك الديون، وبدأ الناس يفقدون الثقة في بنوكهم، تناثرت أخبار تتهم شركات عظمى ببيع أطعمة فاسدة، وتباطأت حركة البيع، هبط العائد من الضرائب، وارتفعت قيمة فاتورة غوث الفقراء، فاستنزفت الميزانيات المحلية للحكومات، وسرحت العديد من الشركات موظفيها، فلا أهمية للعمالة عندما لا يكون هناك صادرات، تضاعفت نسبة البطالة، وانخفضت الأجور مرتين بوجه عام، ورأيت أرباب العمل يخفضون المرتبات بنسب هائلة، وإذا اعترض أحدهم قالوا له "أطل برأسك خارج النافذة، وانظر إلى طابور الرجال المنتظرين لوظيفتك".

شعر الناس أن الأرض تتداعى من تحت أقدامهم، منعت الهجرة، وتم تشديد الرقابة على الهجرة غير الشرعية حتى بين الدول العظمى، أذكر يوم أن أطلق الجيش الأمريكي النار على الذين يحاولون اختراق الحدود إلى أمريكا، وكان عددهم يفوق المئات.

توقفت أغلب الدول عن تصدير الأطعمة، وأقيمت الحواجز الجمركية، فسمعنا عن مجاعات لم نسمع عنها منذ عقود، وآل الأمر في النهاية إلى عقد المؤتمر الاقتصادي العالمي الذي دعت إليه عُصبة الأمم، اجتمع فيه كل رؤساء العالم والاقتصاديين ورجال الأعمال، لاقتراح أفكار وتطبيقها

للهروب من تلك الأزمة، ولكن ذلك المؤتمر ورغم الرواج الإعلامي الذي لاقاه، إلا أنه لم يحقق أي نتيجة، لدرجة أنه بدا وكأنه أثار المزيد من المشاكل، وبدأت الأنباء تشير إلى اندلاع حرب عالمية جديدة، وبالفعل كادت أن تطلق أمريكا صاروخًا نوويًا على الصين، ولكن سرعان ما تم إنقاذ الوضع وتعطيل الصاروخ قبل إطلاقه، وكان الدور الأكبر في إخماد شعلة تلك الحرب لرجل الأعمال الشهير (طاهر صامويل) وهو أحد أشهر وأغنى رجال العالم، طاف بلدان كثيرة من الشرق إلى الغرب، وله أكثر من جنسية، وتدخل شركاته في مجالات وصناعات عدّة، من أهمها الأقمار الصناعية ومشاريع الفضاء، لأن الشركات الخاصة به تقوم ببناء مدينة عملاقة على سطح القمر بالتعاون مع بعض الشركات الأخرى، وهو شيء أكسبه شهرة على شهرته.

تعرّض طاهر صامويل إلى حادث أليم منذ صغره أفقده عينه اليسرى وجزءًا من وجهه، مما أدى إلى تعويض هذا الجزء المفقود بعين آلية تعطيه رؤية أوضح، وتكمل وجهه بطريقة مقبولة، شعره أسود طويل يضفّره عادة خلف رأسه، وهو دائم الابتسام، ولأن اختصار اسم طاهر صامويل وشعار شركته بالحروف الإنجليزية TS فإن له اسم شهرة وهو "توني ستارك" على اسم الشخصية الخالدة للبطل الخارق **ironman** - الرجل الحديدي، لأنه يشبهه في الثراء والذكاء والحضور الجماهيري، وكل ذلك أكسبه شهرة عالمية أكبر، وجعله محبوبًا بين الناس.

طاهر صامويل رجل ملحد ولكنه عادة لا يتحدث عن ذلك، ولم يعد أحد يهتم بتلك الأخبار، لقد صنعت هالة إعلامية حول ذلك الرجل جعلته نجمًا لامعًا، وكان له حضور قوي وقدرة هائلة على الإقناع، بعد أن

ساعدت التكنولوجيا الخاصة به على إيقاف ذلك الصاروخ النووي، بدأ يعلن عن مشروعه العظيم الذي سوف يغير وجه العالم ويحقق الرخاء للبشرية بأكملها، بالتعاون مع أمريكا ومختلف الدول ومنظمة حقوق الإنسان ومختلف المنظمات، وبعد شهور قليلة من التشويق تم عقد مؤتمر اجتمع فيه كل رؤساء العالم من كل الدول، الصغرى والكبرى، الفقيرة والغنية، النامية والمتقدمة، المحتلة والحرة، المعترف بها وغير المعترف بها، حتى يطرح السيد صامويل وبعض كبار رجال السياسة ونخبة رأس المال الخطة الجديدة التي سوف يسير عليها دول العالم أجمع، وذلك حتى لا تقع الأرض تحت طائلة حرب عالمية جديدة تنسف الكوكب بأكمله.

لم يُقَم المؤتمر في روسيا ولا الصين ولا أمريكا، بل أقيم في دولة تدعى كازاخستان، وهي دولة قليلة الكثافة السكانية مقارنة بمساحتها الواسعة، وتحديدا في مدينة اسمها آستانا، وهي مدينة متطورة، مؤمنة جيدًا ومليئة بالمؤسسات وقاعات المؤتمرات المجهّزة على أعلى مستوى، وبمنطقة خالية نسبيًا من المواطنين الكازاخستانيين ومناطق السكن، افتتح المؤتمر بكلمة تقديمية قصيرة من بعض المنظمات المشاركة، ثم اختتم بخطبة السيد صامويل التي كانت نقطة فاصلة في تاريخ العالم، وكان الحدث مباشر، يشاهده العالم أجمع عبر الشبكات المختلفة وبمختلف اللغات، كما أن الترجمة الآلية الفورية الدقيقة فتحت أبواب العالم على بعضها، دخل السيد صامويل على المنصة وإذا بتصفيق حاد يستمر لدقائق طويلة، وهذا ما جاء في خطبته..

2

"إن كل حضارة جاءت على وجه الأرض قالت بأنها لن تسقط وأنها مختلفة عما يسبقها، المصرية القديمة، البابلية، الرومانية، والمايا، وغيرهم.. كلها حضارات عظيمة انتهت، والذي أنهاها هو غرورها وظنونها أنها امتلكت زمام الأمور، ذلك لأن كل حضارة تمر بعدة مراحل مثل الإنسان من الطفولة وإلى القوة والشباب، وحتى مرحلة الشيخوخة والعجز، وما أقوله اليوم قد قاله من قبلي عالم الاجتماع العربي المسلم ابن خلدون منذ أكثر من سبعة قرون.. "

وهنا بدأ رؤساء كل الدول العربية والإسلامية أو غيرهم من العرب أو المسلمين بالتصفيق الحاد وظهرت الابتسامة على وجوههم وهم ينظرون لبعضهم البعض في بهجة وسعادة، كان السيد صامويل يتحدث بالإنجليزية، ومن لم يجيدون الإنجليزية من الحضور كانوا يضعون لهم سماعات دقيقة في آذانهم تتحدث بترجمة آلية وفورية، يتم ضبطها من خلال النظارات أو الساعات المتطورة التي يرتدونها على أي لغة أو لهجة يرغبون بها، انتظر السيد طاهر صامويل بابتسامة حتى انتهى التصفيق ثم أردف:

"نحن بني البشر اليوم في مرحلة حرجة، انظروا إلى الديناصورات على سبيل المثال، جاء لهم وقت على هذه الأرض كانوا يتربّعون على قمة الهرم الغذائي، كان العالم لهم كما هو لنا الآن، ولكن أين هم اليوم؟"

تساءل ثم صمت قليلًا فلم يكن هناك صوت ولا حديث في القاعة، ولا في أي مكان في العالم، كانت تعرض على ساحة القاعة المستديرة الواسعة مقاطع مجسمة لعصر الديناصورات بتكنولوجيا الواقع المعزز ar، وقبلها كانت صور مجسمة لأطلال من الحضارات التي ذكرها السيد صامويل في بداية الخطبة، لا يستطيع أن يشاهد تلك الصور من الحضور إلا من ارتدى هذه النظارات التي تضيف إمكانية مؤثرات بصرية في الواقع الذي نراه، أما من لم يرتدِ النظارة كان عليه أن ينظر في شاشات العرض حتى يرى ما تتم إضافته على القاعة من مؤثرات.. ولكن أقلاء من لم يرتدوا النظارات التي لم تكن تختلف في تصميمها كثيرًا عن نظارات النظر الشفافة بمختلف أحجامها أو نظارات الشمس الملونة، وما كان يعرض في شاشات العرض داخل القاعة هو نفسه العرض المباشر الذي يشاهده العالم أجمع من خلال نظاراتهم أو في شاشات أجهزتهم المحمولة.. ثم أكمل السيد صامويل:

"ولكن.. مازال هناك بصيص من الأمل والوعد والمستقبل، لأن الإنسان ليس ديناصورًا، وليس حيوانًا، بل هو إله، وكل فرد على هذه الأرض هو إله قادر على فعل المستحيل (قال جملته الأخيرة بحماس وصوت مرتفع فانتشر التصفيق والصفير في شتى أرجاء العالم) نحن اليوم بصدد أن نضع نظامًا جديدًا يحقق الرخاء لكل البشر، لا حرب، لا فقر، لا نزاع، لا إرهاب، ولا تطرف"

هنا بدأ الناس في حالة هستيرية من التشجيع جعلتهم في حالة تقبل لأي شيء قد يقوله السيد صامويل مهما كان حتى أنا في ذلك اليوم كنت قد وصلت إلى تلك الحالة من الحماس، ما وصلنا إليه من وضع مُزرٍ

قد أرهقنا جميعًا، وكنّا في انتظار أن نتعلق بأي قشة من الأمل، كنا نثق بالسيد صامويل، المخلّص، وكانت حالة الحماس التي تغزو العالم وكأنها حالة معدية..

"إن ما سوف أقوله لن يعجب أعداء السلام، الذين يحتكرون الصناعات والمال، وأسواق المضاربة، والنشاط المصرفي الطائش، والعداء الطبقي، والتعصب الإقليمي، والتربح من الحروب، وإثارة الإرهاب وبيع الأسلحة، لذلك، وتحديا لهم سوف نقدم بعض التضحيات المؤقتة.. لنذير العالم بشكل جديد، ولنسحقهم تحت أقدامنا"

بالطبع المزيد من التصفيق، وكانت هناك صور متتالية لحروب مختلفة تعرض بالقاعة، ثم اختفى كل شيء وأكمل السيد صامويل:

"والآن سأتقدم بخالص الشكر لجميع الحضور من مختلف بقاع العالم، وسوف أبدأ بشرح موجز لخط السير الجديد الذي ستتخذه البشرية نحو المستقبل المشرق.. سوف يوزع الآن على جميع الحضور كتيب إلكتروني به كل القوانين والإرشادات التي سنتبعها في الفترة القادمة، والتي سنذكرها اليوم بإيجاز شديد، ثم نتقابل بعد شهر من الآن، بعد أن يرجع كل رئيس بلده، ويدرس ما في هذا الكتيب جيدًا ويعرضه على شعبه، وفي اللقاء القادم سوف يوقع الرؤساء ويُدلون بقسم على تنفيذ كل ما هو مذكور في هذا الكتيب، وذلك حتى نضمن السلام والرخاء في كل بقعة من بقاع الأرض، والدولة التي توافق على تلك القرارات سنضمن لها بقائها ودعمها، والدولة التي تخرج نفسها من التحالف فهذا ليس إلا دليلاً منها على ضغينةٍ وعداوةٍ وتحدٍّ، ولكننا لن نجبر أحدًا على التوقيع، كما أن أحدًا لن يجبرنا على التعاون معه ودعمه، لأن من لم يدخل سفينة نوح قبل

الطوفان، فلن يدخلها بعده ولو كان ابن نوح نفسه، ولا مصير للمتكبرين إلا الموت غرقًا.. والآن لنتحدث عن القرار الأول:

لقد حان الوقت لتوحيد العملة العالمية، لم يعد عالمنا كبيرًا، والعملات التي اعتدنا عليها لم تعد تناسبنا، اليوم.. نحن لا نحتاج إلى عملات ورقية، ولسنا بحاجة إلى طوابير التحويلات البنكية المزعجة، والمتربحون منها هم المستفيدون الوحيدون، اليوم سوف نضع عملة إلكترونية لا وجودًا ماديًا لها، يسهل تتبعها، ويستحيل تزويرها، أما عن الأثرياء الذين يمتلكون أموالاً طائلة في البنوك، فيؤسفني أن أخبركم أنكم تركتم أموالكم في البنوك حتى تعفنت، وأنها لم يعد لها قيمة اليوم، بل ما له قيمة هو ما تمتلكونه من مشاريع وشركات وبيوت لها وجود على أرض الواقع، أما بالنسبة للثروة المالية.. فسوف نعيد توزيع الثروات على كل سكان العالم بلا استثناء، نحن نعمل بمساعدتكم على تطوير سجلات إلكترونية لكل فرد موجود على وجه الأرض، وتوزع العملات على سجلات الأفراد بنسب متساوية، الفقير مثل الغني، الرجل مثل المرأة والطفل مثل الشيخ وأنا مثل كل فرد موجود اليوم في هذه القاعة، وليبدأ العالم الجديد بفرص شبه متكافئة، والأكثر تميزًا هو الذي يتقدم السباق. (تصفيق وتهليل) هذا ليس كل شيء.. هذا ليس كل شيء، لازال هناك الكثير"

قال ذلك وهو يشير بكفيه ليهدئهم.. ثم أردف:

"بالنسبة لآلية توزيع العملة والسجلات، أعتقد أننا جميعًا قد سمعنا عن مشروع الرقاقات الإلكترونية التي تزرع في الجسم تحمل الهوية، بل أن بعض الدول قامت بتطبيقها بالفعل ونعترف أنها قد لاقت نجاحا كبيرًا (عندما قال بعض الدول ظهرت أعلام ترفرف في منتصف

القاعة منها أعلام لأمريكا واليابان والإمارات العربية وبعض الأعلام الأخرى) وذلك النظام الذكي رأينا فيه آلية لتطبيقه على اتحاد سكان العالم أجمع، في المستقبل ليس عليك أن تحمل بطاقة هوية أو أموال، سوف يكون لديك رقاقة صغيرة مثل شريحة الهاتف تشحن آليا بدرجة حرارة الجسم، تحمل هويتك وما تمتلك من عملات، تزرع في كف اليد بين الإبهام والسبابة أو في جانب الجبهة أو أعلى الذراع أو أيًا كان حسب رغبة الفرد أو دولته، كما أن هناك عدة قوانين واستراتيجيات أخرى وضعناها للحكومات غير قانون تداول العملة الإلكترونية الموحدة، مثل قانون معايير العمل العادلة، قانون الضمان الاجتماعي، قانون المصارف، قانون الإصلاح الزراعي، قانون الإنعاش الصناعي، قانون الغوث وإعادة التشجير، وكل تلك الاستراتيجيات مدروسة بعناية فائقة وسوف نقوم بدعمها بكل الوسائل الممكنة، لأننا سنصبح حكومة واحدة، ولكن كل ذلك لا يهم أن نتحدث عنه في هذا المؤتمر، لأن هناك شيء آخر أهم من كل ذلك، وأهم من قانون العملة الإلكترونية الموحدة، وهو أكثر تعقيدًا ويتطلب تضحية أكبر، ولكنّه السبيل الوحيد حتى نتخطى تلك الأزمة -التي أؤكد لكم أنها فترة مؤقتة وضئيلة في تاريخ البشرية العظيم- إن عمر البشرية صغير جدًا نسبة إلى كوكب الأرض، وفي الإنجليزية يعطون هذا الكوكب لقب ذكي، إنهم يدعونه أمنا الأرض (Mother Earth)، نحن نعتبر أنفسنا أطفال الأرض، تحت رعايتها، تحتضننا وتعطينا من مواردها مثلما تعطي الأم من ثدييها الحليب لأطفالها، ولكن حتمًا سوف يأتي يوم على الأم وينفد ثديها من الحليب، ولابد للابن من أن يفطم، أن يعتمد على نفسه ويخرج من تلك الحضانة المؤقتة، وذلك

الوقت قد اقترب، وحتم علينا اليوم أن نخطط بجدية لمستقبلنا ومستقبل أحفادنا القريب، الأرض ليس لديها من الموارد ما يصرف على كل هذا العدد، ولكن لا شيء مستحيل على الجنس البشري، اليوم لدينا بالفعل فنادق سياحية في الفضاء، ويزورها المئات يوميًا، ونبني مدينة سكنية كاملة المرافق على سطح القمر، ونجري بالفعل مشاريع لزراعة المريخ، ونطور تقنيات جديدة نحل بها المشاكل التي تواجهنا والتي قد تواجهنا في المستقبل على هذا الكوكب الصغير، لتغدو تربته أكثر خصوبة مما سبق، ويصبح أكثر اتساعًا، وأكثر أمانًا، وفير الماء العذب طيب الطقس، لكننا فقط نحتاج إلى بعض الوقت، نريد أن نستغل مواردنا المحدودة اليوم بتخطيط جيد، وبرفاهية، دون أن نضيع وقتًا في حل النزاعات وإخماد الحروب وانتشال الفقر ودعم المجاعات، كما يقول الخبراء، نحتاج أن نقلل عدد سكان العالم، وبنسبة ثلاثون بالمئة على الأقل، ولكن كيف نفعل ذلك بدون قتل أو تصفية، ولا حروب، وبأقل تضحيات ممكنة؟؟ قبل الخوض في كيفية تنفيذ تلك النقطة، سوف نترككم في استراحة مع فيديو قصير يتحدث عن تكنولوجيا السُبات (Hibernation) التي طورها العلماء مؤخرًا بهدف تسهيل عمليات السفر في الفضاء، ثم نعود لنخبركم كيف يمكننا أن نستغلها اليوم بطريقة مختلفة لنحقق الرخاء على سطح كوكبنا لنعبر بها تلك الأزمة المؤقتة.

3

ترك السيد صامويل مكانه مع تصفيق حاد، وهبطت المنصة التي كان يقف أمامها آليًا في حفرة مربعة على المسرح، ثلاث درجات نزل من عليها ليجلس على مقعد خصص له في الصفوف الأمامية للقاعة، التي شابهت في تصميمها الدائري من الداخل مسرحًا رومانيًا مسقوفًا عظيمًا، أما من الخارج فقد كانت مثل كرة مغروسة جزئيًا في الأرض على شكل شمس، وكانت بالفعل تضيء بأكملها متوهجة في الليل بلون برتقالي يحمر في بقع عشوائية مثل الشمس ويصفر في بقع أخرى، وهي عملاقة ترسم الأرصفة من حولها أشعتها فتمثل مرآبًا ترتص فيه السيارات، أمّا مدخل القاعة ومخرجها فكانا على شكل انحناءات ممتدة مضيئة وكأنها انفجارات الشمس فتحت عبرها أبوابًا، هكذا كانت تصورها الكاميرات من الأعلى عند الفاصل، والإعلانات في هذا الفاصل لم تكن إلا إعلانات للمؤتمر نفسه، أو تلخيص لأهم الجمل التي قالها في ما جاء من خطبته، أو إعلانات للشركات الداعمة، إن ذلك المشروع المستقبلي لم يقم بدعمه شركات طاهر صامويل فقط، بل هناك عدد كبير من الشركات والمؤسسات، كان عددها 666 شركة، وأصبح شعار ذلك المشروع هو عدد تلك الشركات مكتوب بطريقة فنية متداخلة وإلى جوارها شعار شركات طاهر صامويل، أما الحروف TS فإنها لم تعد تفك إلى Taher Samuel بل غدت تفك إلى Triple Six أي الثلاث ستات، التي صارت الشعار الرسمي لهذه لمرحلة، وأصبحنا نراه

على كل شيء.

أعلم أنني أحاول أن أسرد كل شيء يقفز إلي ذاكرتي، ولكني أؤكد لك عزيزي القارئ أن ذاكرتي قليلا ما تخونني، فمنذ صغري وعندي قدرة لا بأس بها أبدًا على الاسترجاع، وإنني اليوم أعيد عليكم كل شيء وكأنني أراه، وربما تكون بعض التفاصيل التي أذكرها الآن غير بالغة الأهمية، ولكن من يدري ماذا قد يحدث في المستقبل، وأنا على أمل أن ما لن يتغير من الحقائق في تلك الصفحات يكون دليلا على ما تغير منه، لن أترك لهم ثغرات هذه المرة كما فعلت من قبل في ذلك التقرير، آه.. ها أنا أقفز بالأحداث من جديد، ولكني لن أتنازل بأن أحكي لكم كل شيء بالترتيب وبأدق التفاصيل، ذلك وعدي لكم..

نعم، توقفنا عند المؤتمر.. قليلًا حتى عاد البث من جديد، في الثواني الأولى كانت الحركة غير منتظمة داخل القاعة، بعضهم عائد للجلوس في مكانه، والبعض الآخر ينهي كلامه مع من يجاوره، ولكن سرعان ما انكتمت الهمهمات تأهبًا لما سوف يتم عرضه، أظلمت القاعة تدريجيًا، وكان هناك ثلاثه كشافات معلقة في سقف القاعة بثلاث زوايا مختلفة وكأنهم رؤوس أضلاع مثلث قائم، يسقط كل كشاف بما عنده من ضوء كاللاعب يلقي النرد على ساحة القاعة، أضاء الكشاف الأيمن الجزء الأيمن من جهاز أسطواني في حجم سيارة متوسطة، ولم يكن موجود هذا الشيء من قبل وكأنه قد انبثق من الظلام، ثم أضاء الكشاف الأيسر الجزء الأيسر منه، وأظهره الكشاف الأوسط كاملًا، والحقيقة أن هذا الجهاز لم يكن موجودًا في الواقع، ولكن هذه الكشافات لم تكن إلا أجهزة عرض ثلاثية الأبعاد، وأن الجهاز لم يكن إلا إسقاط ضوئي كجزء من العرض، كانت خدعة إخراجية لا بأس بها، بدأ ينفتح الجزء الزجاجي

العلوي من الجهاز فخرجت من الداخل أبخرة قليلة، ثم ظهرت حسناء نائمة على فراش صغير، ارتفع ظهر هذا الفراش بحركة ميكانيكية، ثم تقدم بها للأمام قليلا مع انزال قدميها للأسفل ليأخذ شكل مقعد تجلس عليه عند طرف الجهاز، ودخل رجل آخر إلى دائرة الضوء يرتدي معطفًا أنيقًا، وبدأ بالتحدث إلى الفتاة التي استيقظت لتوها:

– مرحبا إلسا لقد كنتِ نائمة هنا منذ شهر كامل، هلا تصفين لنا بماذا تشعرين؟

– كانت مجرد غفوة صغيرة، أشعر وكأنني نمت لأقل من ساعة، كما أنني أشعر بنشاط وتركيز لا أشعر به عادة إلا بعد تناول قهوتي في الصباح.

– شكرًا إلسا (ثم بدأ بتوجيه حديثه إلى الحضور) منذ عقود طويلة ونحن نطور هذه التقنية بهدف تسهيل عمليات السفر في الفضاء، قد تستغرق المركبة في رحلتها عبر الفضاء سنوات مديدة، ولا يمكننا أن نملأ مركبات الفضاء بطعام وشراب يكفي الطاقم لهذه السنوات الطويلة، كما أن رائد الفضاء قد يصاب بالجنون إذا ظل منتظرًا طوال هذه الفترة لا يفعل شيئًا تقريبًا (كان الرجل يتحدث وهو يبتعد عنها قليلًا، ثم أصبحت إلسا ومعها الجهاز الأسطواني يصغران في الحجم تدريجيًا، وكأن الكاميرا تتحرك مبتعدة عنهما، وظهر حولها ملامح لمركبة فضاء واسعة من الداخل، وعشرات من رواد الفضاء يقفون مثلها أمام الجهاز الخاص بهم، وفجأة تخرج الكاميرا من نافذة المركبة لنراها عملاقة بعدد كبير جدًا من النوافذ، وعندما تبتعد الكاميرا عنها أكثر نجدها نقطة صغيرة تسبح في فضاء عظيم، وتظل تبتعد حتى يصبح أمامنا بلّورة معبّأة بالنجوم جوار العالم الذي كان يتحدث، ثم يظهر على حافة البلورة جزء دائري صغير من كوكب الأرض، ويكمل العالِم) هذه التقنية تسمى تقنية

السُبات، العديد من الحيوانات مثل الأفاعي والسلاحف والفئران والدببة تقوم بهذه العملية الحيوية، لتمر بسلام من فصل يقل فيه الغذاء، إلى الفصول التي يتوفر فيها..

(أثناء هذا الكلام بدأت البلورة تقترب بسرعة لتخترق الغلاف الجوي للأرض، وتظل تقترب حتى تدخل إلى جحر تنام فيه أفعى، ثم تذهب إلى جحر آخر تنام فيه سلحفاة، وهكذا مع بعض الحيوانات، ثم يظهر دب نائم توافقًا مع ما يقوله، ويظهر جوار الدب رسم بياني مجسم يوضح ما سيقول)

- في هذه الحالة يخفض الحيوان نشاطه الفسيولوجي كثيرًا عن معدله الطبيعي، ينخفض معدل ضربات القلب ومعدل استهلاك الطاقة وهكذا درجة الحرارة، فيبقى الحيوان على قيد الحياة لفترات طويلة مع عدم توافر الغذاء، لقد عملنا على تطوير هذا المشروع لفترات طويلة حتى يتم تطبيقه على الإنسان، وآخر ما وصلنا إليه اليوم هو أننا نستطيع أن نضع الإنسان في حالة سبات تصل إلى ستة أشهر خلال عام كامل، وهذا بدون ظهور أي أعراض جانبية، ومهما كانت الحالة الجسدية لمن تجرى عليه التجربة، بل أنها توفر للإنسان حالة من الاسترخاء، تنشط العقل وتعيد انضباط الأعصاب، ويمكننا أن نقول أيضًا إنها تزيد من عمر الإنسان، ذلك لأن الفترة التي يدخل فيها الإنسان في السبات غير محسوبة من عمره، وتنخفض فيها معدلات النمو إلى أقصى درجة ممكنة، عمل على هذا المشروع العديد من الأطباء والمهندسين والعلماء، وقد خضع للعديد من التجارب حتى يخرج لكم على أكمل وجه، وكل ذلك بفضل دعم واهتمام كبيرين من شركات السيد صامويل.

اختتم العرض بشعار الشركة الشهير، الـS تدور حول الـT وكلاهما

داخل مثلث صغير، ثم انطفأت أجهزة العرض مع الإضاءة التدريجية المتصاعدة، وطلع السيد صامويل إلى المنصة مع التصفيق، وقال ضاحكًا:

- لا تقلقوا لن نرسلكم إلى الفضاء.

ألقى هذه المزحة فضحك البعض ثم انتظر قليلا حتى انتهى التصفيق، وأردف:

"لقد طورنا هذه التقنية بالفعل بهدف رحلات الفضاء، ولكننا اليوم سوف نستغلها بشكل مختلف، وحتى لا نزيد الأمر تعقيدًا وغموضًا سوف أبدأ بالشرح حالا.. في البداية على كل دولة تدخل في عالمنا الجديد أن تقوم مشكورة بتقسيم سجلات شعبها إلى ثلاثة مجموعات (أ،ب،ج) (A،B،C) (في هذه اللحظة ظهرت رسومات بيانية توضح ما يقال، دائرة مقسمة إلى ثلاث أثلاث وكل ثلث له لون) هذا التقسيم لن يعتمد على عرق، دين، نوع، فئة عمرية أو طبقة اجتماعية، بل هو تقسيم عشوائي تماما، اعتماده الأكبر على المنطقة السكنية، بحيث كل منطقة تحتوي على أعداد متقاربة من المجموعات الثلاث، في كل منطقة سوف نقوم بتجهيز بنايات تحتوي على أعداد كبيرة من أجهزة السبات، كل مجموعة من هذه التقسيمات الثلاث سوف تقوم بعملية السبات لمدة شهر كامل، فمثلا لو اعتبرنا أن المجموعة (أ) قد توجهت لأجهزة السبات في الشهر الأول، فإن أثناء هذا الشهر يكون المجموعتان (ب، ج) يعيشان مع بعضهما، وفي الشهر الثاني تخرج المجموعة (أ) لتعيش مع المجموعة (ج) وتدخل في السبات المجموعة (ب) لمدة شهر، وعندما ينتهي هذا الشهر تدخل المجموعة (ج) في حالة سبات، بينما يعيش المجموعتان (أ، ب) مع بعضهما، ثم تعاد الكرّة مرة أخرى، وفي هذه الحالة سوف نقلل معدل

سكان العالم ومعدل الاستهلاك والزحام إلى أكثر من 30% إذا التزم الجميع بها، وهذا ما نحتاجه تماما، في هذا الحال سوف يرتفع معدل الرخاء من جديد، نخرج من هذا المأزق، ونبني مستقبلاً أكثر صلابة أمام الصعاب، من أجل أبنائنا، وبدون إراقة نقطة دم واحدة"

كان الصمت يسود القاعة، وألاحت أحد الحضور بكفها، وكانت سيدة تجاوزت الأربعين، متجملة وكأنها في العشرين، أشار لها السيد صامويل باسطًا كفه في ابتسامة آذنًا بالحديث فسألت:

- ولماذا ثلاث مجاميع، لماذا لا نقسمهم نصفين، أعني مجموعتين فقط، وكل نصف منهم يجرى السبات عليه شهر أو اثنين، وبذلك يقل عدد الناس بنسبة 50%، أليس كذلك؟

(بعدما سألت السيدة تناثرت في أرجاء القاعة همهمات خفيضة، نظر إليها البعض يتفقدها، مع أصوات ضحكات خافتة، بينما يومئ آخرون مصدقون على ما قالت، وبدا على وجه السيدة الإحراج وهي تتلفت يمينا ويسارًا، وكان على السيد صامويل أن يجيبها ويمتص هذا الإحراج).

- أولا أريد أن أشكرك سيدتي على سؤالك وسرعة بديهتك، وأنك قد فهمتِ سريعًا ما قمت بشرحه، وبالطبع كلامك صحيح جدًا، ولكن ربما في هذه الحالة سوف يكون لدينا مشكلة أخرى، وهي تحطيم العلاقات الاجتماعية، فتخيلي في هذا الحال إن كُنتِ أنتِ في مجموعة، وصديقتك، أو مثلاً زوجك في مجموعة أخرى، في هذا الحال لن يرى أحدكم الآخر، لأنه إذا كان أحدكم في حالة يقظة، سيكون الآخر في حالة سبات والعكس، ولكن في حالة الثلاث مجموعات، فنحن نضمن أن كل مجموعة سوف ترى المجموعتين الأخرتين، وبذلك لن يكون هناك مشكلة كبيرة في العلاقات الاجتماعية.

(ابتسمت السيدة وأومأت دلالة على الاستيعاب، وصفق الحضور، وربما إجابة هذا السؤال أضاحت لهم الموضوع أكثر.. قليلًا وألاح العديد بأيديهم ليأخذوا دورهم في طرح الأسئلة، ولكن السيد صامويل لم يُشر إلى أحد، بل أضاف قائلًا):

- أعلم أن هناك العديد من الأسئلة التي تدور في أذهانكم، وأن هذا النظام سوف يسبب العديد من المشاكل والتحديات، في أنظمة العمل والإدارة والتعليم أو حتى في البطولات والألعاب الرياضية على أقل مثال، سوف تواجهنا تحديات حتمية في إدارة البلاد، لأننا يجب أن نوضح أن هذا النظام لن يستثني أحدًا.. ولا حتى رؤساء الدول، تطبيقًا للعدالة الاجتماعية، وقدوة للعالم بأسره، سوف يكون هناك تحديات، ولكن كل هذه المشاكل يأتي دوركم في وضع تصورات لحلولها، ونحن نثق بإبداعكم، وسنتلقى رسائلكم، وقد وضعنا بعض التصورات حتى تكون فقط مصدر إلهام لكم، نحن نعلم أن كل مؤسسة سوف تخرج بسياساتها الخاصة، ربما مثلا بوضع رئيس مساعد لكل دولة يقوم بمتابعة خطة الحاكم في الوقت الذي يكون فيه مطبقا للسبات، أو أيا يكن.. ونحن عندما نبحث عن حلول مقترحة للمشاكل التي ستواجهنا، أيًا كانت، فسوف نجد أنفسنا دائمًا نتيح فرص عمل جديدة، حيث اليوم الوظيفة الواحدة تتطلب رجلين على الأقل للقيام بها، وقد وضعنا تصورًا لأغلب المؤسسات والمشاكل التي قد تواجهنا حتى في محلات البيع الصغيرة، وساعدنا الأقوى في هذه التحديات هو الآلات وبرامج الإدارة التي نطورها لهذه المواقف والتي يمكنكم تحميلها واستخدامها مجانًا، نؤكد لكم أن هذه المشاكل ليست شيئًا أمام الحلول التي يقدمها هذا النظام، ونحن نثق

في عبقرتيكم لإدارة الأمور، والآن دعونا نُنهي هذا الجمع العظيم بأن نذكركم أننا سوف نتجمع هنا في نفس المكان بعد ثلاثين يومًا لنحصل على موافقاتكم بعد دراسة الأمر، ولا تشعرون أن هذه مدة قصيرة، فبعد أخذ الموافقات سوف يكون أمامنا على الأقل حوالي عام من التجهيزات حتى نبدأ بتفعيل هذا النظام، وكل يوم من التأخير لن يكون في مصلحة الشعوب الجائعة، وأنا على ثقةٍ بأنكم لن تخذلوهم، وأن جميعكم سوف يجيب بالموافقة، لأنه كلما ازداد عدد الدول المشاركة، كلما ازداد المشروع نجاحًا، ونشكركم مرة أخرى.

قالها، وانحنى، ثم ذهب سريعًا متخللا صمت الحضور.

4

بعد هذا اليوم انقلب العالم رأسًا على عقب، تظاهرات في الميادين تعلن موافقتها وتظاهرات تعلن رفضها، ولكن جُلّ وسائل الإعلام كانت إما مؤيدة لهذا النظام، أو شارحة لميزاته، وكأن الرفض ليس اختيارًا، الفرد يثق باختيار الجماهير، واختيار الجماهير لا يأتي عادة من الجماهير، كانت المواقع التي تتمادى في التحدث عن مساوئ هذا النظام يتم غلقها بتهمة الحث على الكراهية بين الشعوب! وكانت تلك تهمة العصر الكبرى، حيث لا مكان لدعاة الكراهية وإشعال الفوضى والحروب، وهذا إسقاط على كل من يرفض.

تناثرت إعلانات بشعار الشركة في كل مكان مع كلمة "النظام العالمي الجديد" وفي مراكز التسوق الكبرى والميادين العامة نزل فريق من المختصين مع كبسولات السبات لمن أراد أن يجربها لأيام أو أسابيع على حسب إرادته وقدرته على الدفع، حتى يحكي تجربته عند خروجه، وكان كل المجربون يشيدون بعظمة التجربة وبساطتها، في كل يوم يتزايد عدد الموافقون ويقل الرافضون -أو هكذا يبدو- ترتيب المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي له قدرة هائلة في تغيير الحالة المزاجية للشعوب ودفعهم للتفكير مرة أخرى ثم الاقتناع "فُلان صوَّت بالموافقة على هذا وخمسون من أصدقائك المقربين" .. "فُلان يدعوك بالتصويت على هذا

ومئة من أصدقائك المقربين".

لكن بعض كبار رجال السياسة كانوا يعلنون رفضهم للدخول في هذا العالم، الذي سوف يجعل قرارات الدول ورؤوس أموالها في أيدي نخبة قليلة جدًا من المتحكمين، يتخذون القرارات السياسية ويضمنون للدولة بقائها ويضعون السيناريوهات المناسبة التي تحدد مصلحتها، ويتحكمون في سعر العملة، ويقدرون على مسح الثروات بضغطة زر.

وأذكر لكم على سبيل المثال قصة رئيس إيطاليا.. وكان أحد هؤلاء المعارضين الأشداء، فتم اغتياله.. في البداية ثار عليه شعبه، وعندما تطور الأمر أخذ طائرة خاصة هاربًا بها إلى لندن ومختبئًا هناك، وبعد فترة قصيرة وجدوا جسده المقتول معلقًا إلى جوار جسر صغير عند نهر الثيمز.

وأما عن الصين.. فقد أعلن رئيسها رفضه أيضًا، وقال إنه يستطيع التعامل وحده مع تلك الأزمة، وأنها سوف تصنع سفينة نوح الخاصة بها، أعلنت الأحزاب والشعوب رفضها تلك القرارات المتهورة التي يتخذها الرئيس، وفي غضون أيام قليلة انقلب الجيش على السلطة، وتم سجن الحاكم وتولى من كان يؤيد النظام الجديد، وما لبث أن نزلت الشعوب للاحتفال.

كان قطاع من كبار المغنيين يتغنون باسم طاهر صامويل "المخلّص"، ونظامه الجديد، الذي أعطى وعودًا لرجال الأعمال ورجال السياسة، رجال الأعمال يؤيدون، ومن تحتهم كبار التجار وصغارهم، ورجال السياسة يؤيدون، ومن تحتهم عبدة المصالح وأتباعهم.

بدا للجميع أن العالم بأسره يوافق ويؤيد ذلك النظام، وحالة القبول تلك أزادت بالفعل من تقبل الناس، حتى أنا صوّت بالموافقة في الاستفتاءات

التي أقيمت عبر المواقع المختلفة، ربّاه.. الآن أتذكر كل شيء وكأنه كابوس، وكأن الذي أذكره لم يكن أنا، بل شخص يشبهني ولكنه مغيب لا بصيرة له ولا يفقه شيء في الحياة، لم أكن أرى إلا من خلال مواقع للعبث بالأفكار وغسل الأدمغة وتشكيل الوعي، تنشر أخبارًا معينة وتخفي أخبارًا أخرى، عندما ينخرط الفرد في صفوف الجماهير فإنه ينزل درجات عديدة عن سلم الحضارة، تتلاشى الشخصية الواعية، وتهيمن الشخصية اللاواعية، يصاب بالنزق وسرعة الانفعال، وانعدام الرأي، والمبالغة في العواطف والمشاعر، وفي المؤتمر الذي تم عقده في الموعد المعلن، أعلنت كل الدول بلا استثناء موافقتها على الانضمام، وتوجهنا نحو النظام الجديد كما تتوجه الحشرة نحو مصيدة الضوء.

الفصل الثاني

1

في ذلك اليوم الذي صعدت فيه الشمس إلى منتصف السماء في كللٍ وبطء، متحدية سرعة المدينة وإيقاعها المتوتر، انتشر النحل في الحقل الذي نمتلكه في فناء الفيلا الصغيرة، فيلا جدو يحيى، الذي كنت أعيش معه منذ عدة أعوام، هو شخصية عجيبة حقًا، وقد اختار لنفسه أن يعيش بمنأى عن البشر محافظًا على القيم الكلاسيكية بعيدًا عن رياح التغيير التي تعصف بالمدينة، لقد قررت أن أعطي ذلك الرجل حقه الكامل في هذا الكتاب، وأكتب عنه الكثير حتى ولو كلفني ذلك بعض الوقت الذي لا أملكه، تقع فيلا جدي على الطريق الصحراوي بين القاهرة والإسكندرية، كان هناك مبانٍ سكنية قريبة لعمال في بعض الشركات التي تقع في هذه المنطقة، ولكن بعد أن توقفت الشركات عن التصنيع تم هجر هذه البيوت حتى سكنتها الأشباح، ولكن سرعان ما هجرتها الأشباح أيضًا، عندما أقيم مركز تجاري كبير قريب من المنطقة، أنعش الحركة السكانية في المكان بصورة أكبر مما سبق، مما جعل جدي يشعر بالإزعاج والإحباط، فهو عدو المدينة ويفضّل السكن بجوار الأشباح على أن يسكن إلى جوار البشر، لدينا في فيلا جدي حديقة واسعة جدًا، تملؤها أزهار الأقحوان والياسمين والريحان وشجيرات التين بنوعيه، وتتناثر فيها أشجار الموالح

من ليمون وبرتقال، يهفو عليها النحل من حين لحين، ففي الفناء الخلفي للفيلا، وبين عدد لا بأس به من النخيل وأشجار الظل، لدينا منحل عسل صغير مكون من اثنا عشر خلية، يستخرج جدي منه العسل ويبيعه في دكان صغير جدًا -ولكن له زبائنه- ويقع على الطريق ملتصقا بسور الفيلا الأصفر ذو المصابيح الباهتة، فمع ندرة النحل في الآونة الأخيرة ارتفع سعر العسل الطبيعي مما جعلها تجارة لا بأس بها.

بعد أن تركت عملي كطبيب في المستشفى -أو عملي هو الذي تركني- صرت أعمل مع جدي متناوبا في دكان العسل الصغير، وذلك بعد أن طرد الصبي الذي كان يعمل معه منذ مدة قليلة، ولا أعلم سبب طرد جدي لهذا الصبي، ولكنه لم يكن الأول، وجدي رجل عصبي سريع الغضب، وليس هناك في هذا الزمن شيء يثير إعجابه.

والآن لنعد إلى ذلك اليوم الذي صعدت فيه الشمس في بطء وملل، كان ذلك بعد المؤتمر الذي حدثتكم عليه بعام أو أقل قليلًا، وقبل الوقت الذي أكتب فيه هذا الكلام بعام أو أكثر قليلًا، لم يكن النظام الذي تحدث عنه طاهر صامويل قد طُبق بعد، لأنه كان يحتاج عامًا كاملاً من التحضير، أنشئت في كل دولة وزارة جديدة اسمها وزارة السبات، وبقيت أسابيع معدودة حتى يبدأ التطبيق الفعلي، وقفت في شرفة البيت أتابع الفراغ من حولي، على الصف الثاني من الطريق، وعلى بعد أمتار من الفيلا كان (ريست عم عز)، استراحة صغيرة ومحطة شحن كهرباء سريعة للسيارات العابرة، وبينما ينتشر النحل في فناء الفيلا وخارجها، رأيت بعضهم قريب من استراحة عم عز، وهنا تنبأت بمصيبة، لم أكن أرى جيدًا ما يحدث داخل الاستراحة لأن الشمس داعبت عيني في انعكاساتها

على الزجاج، ولكن من الدكان بالأسفل يمكن أن يرى جدي ما يحدث عبر باب الاستراحة المفتوح، تمنّيت ألا يكون جدي منتبهًا، ولكني سمعت صوته يصيح فجأة:

- أيها الحيوان الحقير أقسم بالله سوف أقتلك، سوف أقتلك أيها الحقير.

وقد حدث ما توقعت، سحق عم عز نحلة جديدة، فقد هدد أكثر من مرة لو دخل النحل إلى استراحته سوف يقتله، وعم عز ليس أقل عندًا من جدو يحيى، جاوز عم عز عامه الأربعين، بينما جدي قد جاوز السبعين، وهم أعداء منذ أن ظهر عم عز باستراحته في هذه المنطقة، التي له فيها عامين لا أكثر، فزعني صوت جدي فخرجت سريعًا محاولاً إيقافه عن الذهاب للتشاجر، وأخبرته أنني سوف أتصرف، ولكنه دفعني بعيدًا وضربني بعكّازه في منتصف رأسي ضربة جعلته يتورّم.

- ابعد عني أنت الثاني، أعوذ بالله.

ثم أخذ يشير إلى السيارات بعكازه حتى يعبر الطريق وهو يتمتم "خذني يارب، نسيتني في عالم نسوك فيه، لماذا نسيتني هنا يارب، لست أنتمي لهذا العالم الفقري" وكانت تلك الكلمات لازمة في لسانه كلما أغضبه شيء، وجدي يحيى في الحقيقة كان يغضبه كل شيء، عندما استفقت من دوختي واستعدت توازني، سمعت صوت الشجار:

- يا بني آدم يا بارد يا حقير، ما لك ومال النحل.

- قلت لك لو النحل عتّب استراحتي سأسحقه، النحل يبعد الزبائن ويقززهم.

- النحل أنقى منك ومن أهلك يا بارد.

- اللهْ! تصدّق أنت رجل قليل الأدب ناقص التربية صحيح.

انطلقت مسرعًا عابرا للطريق لأنقذ الوضع، وقفت بين جدي وعم عز تلفعني سباباتهم، محاولا أن أدفع كل منهما بعيدًا عن الآخر، نزل العابرون ورواد الاستراحة من سياراتهم يتفرجون، وجاء أخيرًا شاب سمين يسحب عم عز إلى استراحته، ثم عبرت مع جدي الطريق لأعيده محاولًا تهدئته.

- استهدى بالله يا جدي، اتركها عليّ، سوف أذهب لأحدثه، ولن يقترب أحد من نحلك بداية من اليوم.

ولكنه لم يعبأ بما أقول، دخل إلى الفيلا، أشعل سيجارة بيد مرتعشة، ولا يتوقف فمه عن إطلاق السباب والشكوى:

- ربنا ينتقم منك يا أخي، ربنا يأخذني ويريحني من هؤلاء البشر، لماذا نسيتني يارب، لماذا نسيتني، لم أعد أطيق الحياة.

تركته وذهبت إلى عم عز، ذلك الرجل المزعج، لأتفاوض معه، ماذا يريد حتى يترك النحل في حاله، ولكن فور وصولي سمعنا بغتة صوت دوي عظيم من داخل الفيلا، فانطلقت مسرعًا، ووجدت جدي قد قفز من النافذة العلوية منتحرًا.

2

في المستشفى، كل شيء ساكن.. لا شيء يوصف، لا اهتزاز للستائر، لا تتحرك عقارب الساعة القديمة، ولا الناس اليائسين على المقاعد، خرج الطبيب، وهو صديق.. بشّرني خيرًا، الأشعة لا تنبئ بأي كسور أو شروخ، مجرد كدمات في الضلوع، وكدمات الضلوع تأخذ وقتًا حتى يزول الألم، الأرض الرطبة امتصت الصدمة لحسن الحظ، وقد استعاد وعيه، أجرينا له الإجراءات اللازمة، ولكنه غير قادر على الحركة مؤقتًا، كان معي ذلك الشاب الذي ساعدني في فض النزاع، وعرفت أن اسمه ماريو، شاب في منتصف العشرينات، عريض المنكبين، عظيم البطن، أقصر مني قليلًا وأعرض، ويشبه دب لطيف، شعره طويل أسود وناعم، يعقده برابطة من الخلف، وجهه بشوش، وهو أحد سكان العمائر القديمة، رأيته يشتري العسل من عندنا أكثر من مرة، لم أعرفه بصفة شخصية قبل ذلك، ولكنني استلطفته، وصّلنا جدي إلى البيت، وشكرته على خدمته وأضفته على حسابي، وكانت تلك بداية صداقتنا، تحدثت مع صديق لي يعمل طبيبًا نفسيًا حتى أسأله عن حالة جدي، كان جدو يحيى مريض نفسي، متعلّق بماضيه إلى حد الاكتئاب، ولكني لم أتخيل أن المرض قد يصل به يومًا إلى هذه المرحلة، جدي من الأقلاء على هذه الأرض من مواليد ما قبل الألفين، وقد عاش على هذه الأرض أكثر من سبعين عامًا، وهو شديد التمسك بهذا الماضي الذي جاء منه، إلى حد يجعله يرفض هذا الزمان بما فيه، جدو يحيى يشبه الصَدَفة التي تحتفظ بصوت البحر

أينما ذهبت، لقد أصيب بصدمات عدّة خسر فيها الكثير من أحبابه، آخرهم كان ابنه الوحيد يزيد، والدي.. بعد أن انفصل أبي وأمي قضيت طفولتي مع أبي فترة، ثم سافر وتركني مع أمي، ولكنّها تزوجت، ثم سافرت وتركتني لجدي ولم نسمع عنها منذ ذلك الحين، كنت شابًا لم يتجاوز العشرين عندما سمعنا خبر موت أبي في حادث لا داعي لذكر تفاصيله، فلم يبق من العائلة سوى أنا، وجدو يحيى، كان جدي يهوى في الماضي عزف البيانو، ولكنه اعتزل ذلك منذ حادثة أبي.

نصحني الطبيب النفسي أن أصاحب جدي هذه الفترة، أن أسمع منه، ثم أجعله يسمع مني، وأن أُحببه تدريجيًا في هذا العالم، ولكن دائمًا هناك ما هو خارج الحسبان، نزل جدول السبات في مصر، والذي بقي عليه شهر، في المجموعة (أ) كان جدو يحيى، وهي أول مجموعة تدخل في السبات، ويمكنكم أن تخمنوا رأي جدي في هذا النظام وحدكم، أما المجموعة (ب) فكانت مجموعتي، وفي المجموعة (ج) رأيت ماريو وعم عز، تقدمت بطلب على أن أحول نفسي في مجموعة جدي أو أحوّل جدي في مجموعتي، بحجة أنه مريض ويحتاج إلى رعاية، ولكن تلك الطلبات تأخذ وقت، علينا أن ننتظر دورنا، وأن نحل محل آخرين يتم تحويلهم مكاننا، لم أكن أعلم كيف أقول لجدي هذا الخبر، ولكني قررت التحدث معه قليلًا.. حضّرت له طعامًا وأجلسته بعد أن كان نائمًا على فراشه، وضعت الطعام أمامه وسألته عن صحته وأجاب "بخير" وكان يبدو على صوته التعب الشديد، أكل قليلًا ثم سألته تمهيدًا عن رأيه في ذلك النظام الجديد، وهل هو موافق عليه، وأجاب:

- بم تفيد موافقتي، سيتم تنفيذه سواء شئت أم أبيت، بل قد تم تنفيذه بالفعل منذ أن زرعوا فينا هذه الشرائح.

أشار إلى كتفه.. وكان يقصد رقاقات العملة وسجل الهوية، وقد تم زراعتها للناس على مستوى العالم أجمع بعد المؤتمر بحوالي شهرين، عند أغلب المصريين زرعت الشرائح في أعلى الذراع الأيمن، هذا المكان الذي يبدو غير ظاهر في أغلب الأحيان، وكأننا نشعر بالخجل منها، هذه الشرائح موصلة بطريقة مباشرة بالأعصاب، فإذا فكّر أحدهم في نزعها ستولّد صدمة تسبب إغماء الفرد لمدّة لا تقل عن نصف ساعة، كما أنّها ترسل تنبيهات إلى أجهزة الشرطة للقبض على هذا الفرد، فتطبّق عليه عقوبة نزع الشريحة، ستة أشهر على الأقل، أردف جدّي:

- لا أنكر أن الحالة الاقتصادية تحسنت كثيرًا بعد تطبيق هذا النظام، وأنها سوف تتحسن أكثر بعد تطبيق نظام السبات، ولكن..

ثم صمت، وأضفت محاولا تسهيل الكلام عليه:

- ولكنها سوف تدمر العلاقات الاجتماعية بفصل الناس وتقسيمهم فئات.

ثأثأ جدّي مستنكرًا:

- ليست هذه المشكلة الأكبر، العلاقات تدمرت منذ أن أصبح الفرد يجالس هاتفه أكثر من مجالسة الناس، منذ أن كبرت الفجوة بين الأجيال وبعضها، منذ أن غابت الأخلاق، وأصبح الكلام عنها شيء ممل، ما نحن فيه ليس بجديد علينا، ولكن في البداية كان باختيارنا، بعدها سوف يصبح مفروضٌ علينا، وسواء هذا أو ذاك.. لا تفرق كثيرًا.

لا أعلم إن كان جدي على حق، أم أنّه حقًا لا يعجبه العجب. كلامه ينغّصني، ولذلك كنت قليل الكلام معه، سئمت عاداته وكلامه الواعظ المكرر، وغضبه في معظم الوقت، في الحقيقة لم أشعر بخوف عليه إلا عندما حاول الانتحار، كان ذلك شيء غريب، خارج التوقعات، لا أعلم

إن كان هذا الخوف والفزع الذي شعرت به بسبب أنه الوحيد الباقي لي في الحياة، أم لأنني كنت أحبه، ذلك الرجل الذي كنت أتململ كلما تطرق إلي الحديث معي، رغم أنني أحب ضحكته النادرة، وأكره أن أراه يدخن، رغم أنه نادرًا ما يضحك بدونها، كان دائمًا حليق الذقن، ولكنّه أطلق لحيته بعد موت أبي، لحيته بيضاء يتخللها شعيرات رمادية، وشعره أبيض ناعم ولامع كالفضة، وذراعيه دائمًا مليئتان بالبثور جراء قرصات النحل، وكان في ملامحه يشبهني، أو أنا الذي أشبهه، أبي كان يقول دائمًا "ياسين يشبه جده يحيى، في الشكل والعند" ولكن ما أعترف أنّي ورثته عن جدي حقًا هو الذاكرة، كلانا يمتلك ذاكرة لا تنسى، وذلك له منافعه ومساوئه، وهذا يبرر لماذا جدي لا يكف عن الحزن على والدي، أخذت من جوار جدي بقايا طعامه وأحضرت له بعض الماء ليشرب، ثم سألته:

- لم تخبرني إذًا، ما هي المشكلة؟

- لأنّه لم يعد هناك مفر، لقد أصبحنا تحت سيطرتهم بالكامل.

هكذا أجابني، ولكن لم أدرك معنى كلامه حينها.

3

تلك الأيام كنت أقوم وحدي بجمع العسل وتعبئته، بينما الحدائق كان يقوم بسقيها هذا البرنامج الآلي الحديث، بواسطة الإنترنت يقوم بقياس درجة الرطوبة في الهواء وفي التربة وما يحتاجه النبات من ماء في هذا اليوم، ويعطيني بيانات دورية بما يحتاجه النبات من أسمدة ومبيدات، فأطلبها إلكترونيًا بالصفات التي يخبرني بها جدي وتأتيني بواسطة طائرات صغيرة توصل الطلبات من المتجر، فآخذها وأقوم بوضعها، ثم أعطي برنامج الساقي أمر برش الماء لإذابة المبيد، وأما عملية جمع العسل، فكنت أرتدي ذلك الرداء الأبيض الواقي الذي لا يحب جدي أن يرتديه أبدًا ويكتفي برش الدخان، فقبل أن أفتح الخلية، وحتى لا يهجم النحل عليّ مدافعًا عن عسله، وجب أن أرش المدخّن، وهو جهاز صغير ينفث دخانًا، يخبرني جدي أن هذا الدخان لا يضر، ولكنه يجعل النحل يتنبأ بحالة طوارئ، وكأن هناك حريق، فتملأ الشغالات بطونها إلى آخرها بالعسل كنوع من التخزين الاحتياطي، مما يصيبها بتخمة تهدئ من حركتها وتجعلها تترنح في بطء وكأنها ثملت، فأفتح الخلية وأعبئ ما أحتاجه من العسل دون أن يزعجني هياجها.

عليّ أن أخبرك عزيزي القارئ أن هذه التفاصيل قد تبدو لك غير هامة، ولكن كل هذه التفاصيل سوف أحتاجها فيما بعد، ولو بنسب بسيطة،

وأريدك أن تكون مدركًا للصورة كاملة، وأن أحكي لك ما حدث كقصة متسلسلة حسب ما أتذكر دون أن أترك أي ثغرة..

فتحت الدكان متأخرًا ذلك اليوم، قليل من الناس جاء للسؤال عن جدّي، وأقل منهم جاء ليشتري، عملية الشراء كانت بسيطة، إما أن يقف الشخص أمامي ويضغط على شريحته فيقول أحول مبلغ كذا لفلان، أو أن يحولها بضغطة إلى خزنة الدكان، وهي آلة صغيرة تختزن الأموال المحولة وتحولها من شخص لشخص حسب طلب مالكها، في ذلك اليوم جاءتني تويا.

– صباح الخير.. ياسين؟

سألت لتتأكد من الاسم، أومأت برأسي مصدّقًا، ثم قلت:

– صباح النور

– آسفة عمّا حدث لجدو يحيى، أنا تويا ابنة عم عز.

وأجبتها مبتسمًا:

– أعرفك.

كنت أراها كثيرًا من نافذتي، تبدو أصغر مني بعشر أعوام على الأكثر، أو خمسة على الأقل، ثيابها دائمًا قصيرة، شعر قصير أيضًا، بشرة بيضاء، وعينيها العسلية الواسعة مع رموشها الطويلة أكثر ما يميزها، كانت تتردد أحيانًا على جدي، ولكن لم نتحدث قبل ذلك اليوم.. قالت:

– أبي طبعه صعب، هو يكره الحشرات، ويعتقد أن النحل يخيف الزبائن كما يخيفه.

– والحقيقة أن أباك هو الذي يخيف النحل والزبائن.

ظهر الضيق على وجهها مما قلت، وكنت أقصد ذلك، وكأن دافعًا داخليًا

أراد أن ينتقم من أبيها فيها، التقطت عبوة خبز ملكات صغيرة، قالت "أريد هذا" فكتبتُ سعره على الجهاز وأدرته نحوها، وضعت بصمتها وحوّلت المبلغ، ثم ذهبت.

أنهيت ذلك اليوم مبكرًا، وقبل أن أنام قررت أن أتسلى قليلًا، أن أرسل إلي ماريو طلبًا للعب، كانت إحدى ألعاب الواقع الافتراضي الجماعية، ندخل فيها بهيئتنا هاربين من عالمنا، نتناقل من بين ألعاب الحروب وسباق السيارات وألعاب القتال والألعاب الرياضية، قبلت الطلب ودخلنا في أجواء اللعبة.. بين أروقة القصور المهجورة، وخلف أشجار الغابات المظلمة، تخرج علينا الأشباح والشياطين لنحاربها، وبدا ماريو داخل اللعبة أكثر نحافة مما عليه في الحقيقة، تصافحنا عندما التقينا فسألني:

- ياسين، كيف حال جدّك؟

- بخير.

وفي هذه الثواني الأولى خرج علينا بغتة وحش قبيح هجم على ماريو وأسقطه، صرخ ماريو بصوت عالٍ في فزع، وخرجنا من اللعبة سريعًا، ثم اتصل بي، فسحبت شاشة الهاتف الصغير لتزداد اتساعا وأجبته، كان جالسًا أمامي يضحك على نفسه بشدة، حتى أصابه السعال واحمر وجهه، وكنت أضحك معه، ثم هدأ قليلًا، فشرب بعض الماء ثم قال:

- آسف لم ألعب هذه اللعبة من قبل.

- ولا أنا.

- لحسن الحظ أنني أعيش وحيدًا، وإلا فزع صراخي البيت كله.

ضحك مرة أخرى، وما كان يضحكني في الحقيقة هو منظره أثناء الضحك، بدا طيبًا جدًا، كان يأخذ شهيقًا متكررًا ثم يشرب المزيد من

الماء حتى يهدأ، بعد ذلك سألته:

- أرأيت أي مجموعة أنت؟

- (ج) وأنت؟

- (ب).. وجدي (أ).

- آه.. مشكلة.

- أعلم، أحاول أن أجد له جليسة تراعيه في الفترة التي سوف أكون فيها في حالة سبات، لأنه لا يحب الروبوت ولا يقبله.

- ولِمَ جليسة، يمكنك أن تعتمد علي، عندما تقضي مجموعتك فترتها سوفَ أكون أنا معه والعكس.

- لا.. شكرًا، لا نريد إزعاجك.

- إزعاجي!! أخبرتك أنني أعيش وحيدًا، ليس لي أصدقاء، ولا عمل حتّى.

- ربما تتوفر لك فرص عمل عند تفعيل نظام السبات.

- لن أعمل.. لا أحتاج إلى ذلك.

- يعني أنك تقضي وقتك فقط في طلب الأكل والألعاب الافتراضية.

فضحك مرة أخرى:

- طلب الأكل ممكن، ولكن هل ما رأيته داخل اللعبة مستوى رجل يقضي كل وقته في الألعاب الافتراضية، صدّقني كانت المحاولة الأولى، وربما تكون الأخيرة.

وسألته:

- فيم تقضي وقتك إذًا؟

- أخترع.

قال فتعجبت، فضحك، فضحكت، فأردف:

- جدك يعرفني جيدًا، وأنا أحبه، سوف أراعيه في تلك الفترة، أحتاج أن أخرج من عزلتي، أمامنا شهر حتى يخرج من سباته، سوف نهيئ الوضع، ونجد طريقة لنساوي الأمور بينه وبين عم عز، ونحسّن من حالته النفسية، لا تقلق يا صديقي.

الفصل الثالث

1

جاء يوم التطبيق الفعلي لنظام السبات، من بين ما أعرفهم كان جدي من ضمن المجربين الأوائل، طلبت توصيلة لفردين من التطبيق، فجاءت السيارة صغيرة جدًا بها مقعدين متجاورين فقط وبدون سائق، طلب جدي منذ أيام أن أشتري له عكازًا، لأول مرة أراه يتوكأ في خطاه، لأول مرة أشعر منه بالعجز، الحقيقة التي رفضها جدي ولم يستسلم لها أبدًا، يبدو أن تلك السقطة أخذت منه الكثير، بينما تتحرك السيارة وجدته شاردًا، ظل ينظر إلى النافذة التي قفز منها منذ أيام، حتى اختفت، ثم تمتم:

- جبان.

- نعم!!

- أنا جبان.. عندما وقفت هناك، في ذلك اليوم، كنت غاضبًا، ولكني كنت خائف، أخاف الموت مثلما أخاف الحياة، واليوم أخاف تلك المقابر المحدّثة التي أنا ذاهب إليها، أتمنى لو أخرج منها لأجد نفسي قد عدت طفلًا من جديد.

أمسكت معصمه محاولًا طمأنته، لم أجد شيئًا لأقوله، نظرت إلى السماء،

كادت الشمس تغرب، زقزقة الطيور التي أوحت للإنسان القديم باختراع الموسيقى، أوحت لي بأن الموسيقى هي التي ستخرج جدي من حالته، لقد كان عازف بيانو في يوم ما، عليّ فقط أن آمر السيارة الصغيرة بما أريد سماعه فتلبي، وفكّرت في أن بعض الموسيقى التي أحبها في شبابه ستكون الحل الأمثل، "تسمع مزيكا؟" سألته فأومأ موافقًا، وأضفت:

- ما رأيك في أن نسمع شيئًا يعيد إليك ذكريات الشباب، مَن كان مطربك المفضل؟

فكّر بعض الشيء، ثم قال:

- مطربتي المفضلة لم أر وجهها في حياتي، مجرد صوت تربيت عليه، ولازال يتردد في أذني إلى اليوم.

- أحببتها ولم ترها أبدًا!! غير معقول، هل تذكر اسمها؟

وأجابني في هدوئه المعتاد:

- بالطبع أذكره، رشا رزق.

فكّرت في نفسي، لم أسمع هذا الاسم من قبل، ذكرت اسمها فظهرت مقاطع من أغانيها، فأدركت أنها كانت مغنية لبرامج رسوم متحركة قديمة.

ألهذه الدرجة كان جدي مرتبطا بطفولته، كيف يكون عازفًا ويعرف عددًا هائلاً من الألحان ثم يطلب أغنية للأطفال، لا أذكر أنني انتميت يومًا إلى شيء لهذه الدرجة، كل ما أذكره أننا كنا نسخر من كل شيء، ربما تربينا على عدم الانتماء، ولكن في ذلك اليوم لم أسخر، في ذلك اليوم قررت أن أفتح له قلبي، لأنني شعرت حينها أنه ليس إلا طفلاً تائهًا في عالم غريب، اخترت أغنية عشوائية، (عهد الأصدقاء)

"حلمنا نهار، ونهارنا عمل، نملك الخيار، وخيارنا الأمل، وتهدينا الحياة أضواء في آخر النفق، تدعونا كي ننسى ألمًا عشناه، نستسلم لكن لا ما دمنا أحياء نرزق، مادام الأمل طريق فسنحيا"

كان جدي ينصت في هدوء، مغمض العينين، متكئ الرأس، يتبسم ويذرف دمعًا هادئًا، يغمض عينه، تتحرك أصابعه مع اللحن بثقة، وكأنه يعزف لحنًا يحفظه جيدًا، أغلقت السيارة نوافذها، صوت المحرك هادئ وأصوات الخارج معزولة، شعرت أنني طفلًا، وتركت الأغاني تتوالى بعشوائية حتّى وصلنا (القناص، بي بليد، الحديقة السرية، بوكيمون، كونان، ريمي، وأبطال الديجيتال "نسيم الصباح" و"الخطوة تدفع خطوة").

دخلنا مدينة القاهرة، حيث الأبراج العالية وناطحات السحاب، عربات الشرطة الطائرة والأتوبيسات، الكباري الملتوية، والإعلانات الضوئية المتناثرة، ولكن بساطة الأغاني وهدوئها عزلنا عن كل ذلك، أخيرًا توقفت السيارة بهدوء وانفتحت أبوابها، صرح هائل، وأمامه عدد كبير من الوافدين، تأملنا الوجوه من بين متفائل ومتشائم ومتخوف، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتّى دخلنا، المبنى من الداخل مطور ومعد جيدًا من حيث المظهر والتنظيم، الساحة واسعة تعطي إيحاء بالراحة النفسية، بالإضافة لنظام التأمين والتنظيم الآلي، تواجد عدد من الأطباء ورجال الأمن يطمئنون الناس، هناك ساحة خاصة لكبار السن، وساحة خاصة للأطفال، وساحة مجهزة خاصة للمرضى، أما عن المرضى ذوي الحالات الطارئة فقد زودت كل مستشفى بمقر سبات خاص بها، كما أن المستشفيات الرسمية لها الحق في أن تلغي أو تؤجل موعد السبات إن توفرت الأسباب الكافية، وهكذا هناك كبسولات خاصة في دور المسنين،

وأعذار للعاجزين من المسنين وذوي الاحتياجات الخاصة، ولكن جدي لن يقبل أن يقول أحد إنّه عاجز أبدًا.

داخل المبنى الكبير كان هناك قسم للطوارئ الفنية وعدد من الفنيين والمهندسين والأطباء المدربين على أعلى مستوى، تساءلت من أين جاءوا بكل هذه الأموال لبناء مقر مثل هذا في كل منطقة وبكل دولة، وكانت هناك بعض الإعلانات الضوئية المتحركة، من ضمنها شركات طاهر صامويل وال666، وبعض شركات التعديلات الوراثية، بعض الأطفال في منتصف القاعة الواسعة يلعبون عند إعلان لأحد أنواع البيرة، الذي كان عبارة عن زجاجة ضوئية ضخمة تصب البيرة في فوهة وهمية على الأرض، وإذا وقف أحد الأطفال على هذه الفوهة ينزل المشروب الوهمي فوق رأسه أو في يده أو في فمه مع المؤثرات الصوتية وتتناثر القطرات بشكل فنّي مثير، وإذا ضرب أحدهم خيط البيرة المنسكب بيده اضطرب وتناثرت قطراته بعيدًا، كان صوت التدفق عذبًا يملأ الساحة ويضيف لها لوحة جمالية، والبيرة الضوئية بدت وكأنها حقيقية بالفعل، قال جدي ساخرًا:

- نافورة من البيرة!

هز رأسه معترضًا ثم سألني:

- في رأيك.. كل هؤلاء الأطفال إن كان آبائهم في حالة سبات، من سيعتني بهم.

- يدخل الطفل في مجموعة أمه آليًا حتى سن السادسة عشر، وفي أسوأ الأحوال يمكن للآباء أن يستأجروا مربية للاعتناء بالطفل، أو يضعونه في أحد دور الرعاية التي خصصت لهذا الغرض.

- كل ذلك هراء، لن ينشأ طفل سوي بلا معاناة وبأخلاق سليمة إلا إذا تربى مع أبويه.

- أنا لم أتربى مع والداي، عشت أغلب طفولتي معك.

فقال: جدّك في مقام والدك يا غبي، ثم مَن قال إنّك عاقل.

- شكرًا يا جدو.

دخلنا قاعة كبار السن، ساحة واسعة، مقاعد مرصوصة صفوف طولية كنظام الطيارات، كان كل من يدخل هذا الصرح ممن سيجرى عليهم السبات يتم تسجيله في رقم تسلسل، إذا جلس على المقعد يأخذ المقعد رقمه آليًا فإذا جاء دور الجالس يضيء المقعد وتصدر شريحته صوتًا تنبيهيًا، فيأتي المختصون ليدخلوه في كبسولته، كانت الأرقام تتقدم بسرعة، ولكن عدد الحضور كان كبيرًا، جلست إلى جوار جدي، وفجأة فزعني صوته يدوي في القاعة:

- رمزي، ولد يا رمزي.

انتبه كل الحاضرين من صياحه، وكأن الكل اسمهم رمزي، ولكن رمزي الحقيقي كان رجل عجوز في مثل عمر جدي تقريبًا، أشار له جدي، فدقق الرجل البصر حتى تبين له ما رآه، اقترب برأسه بعض الشيء، أضاق عينه قليلًا يتذكّره، ثم فغر فاه مندهشا، ثم صرخ هو الآخر بصوت جهور ملأ القاعة:

- يحيى!!.. أين اختفيت طوال هذه السنوات يا خول.

هذا ما قاله ذلك الرجل الغريب، وفي منتصف القاعة، وأنا الذي اعتقدت أن جدي غريب الأطوار، اتجه كل منهم نحو الآخر متحديًا قيود العجز، تعانقا ثم جلسا سويًا، وتحدثا سويًا كزميلين في المدرسة، ونسيا وجودي تمامًا، فهمت من كلامهما أنهما كانا أصدقاء من الطفولة وكانا يعزفان

معًا، وأنهما لم يلتقيا منذ ثلاثين عامًا، تذكر جدي وجودي أخيرًا فقدّمني:

- ياسين، حفيدي.

- يااااسين أذكرك وأنت في المهد.. أمك تربت على يدي.

قال جدي محاولا مقاطعته:

- ياسين يزيد يحيى العسّال، ابن ابني يزيد العسّال يا رمزي.

وبدا الرجل مرتبكًا، وأضاف.

- آه.. نعم أتذكر، وأبوك أيضًا تربي على يدي هه هه هه، من منكم معي في هذه المجموعة؟

- جدي. (قُلت)

- آه، نعم، قاعة كبار السن، يجب أن يكون جدك.

ذلك الرجل غريب الأطوار، لماذا يبدو أن كل المولودين قبل الألفين وكأنّهم جاءوا من عالمٍ آخر.

على مساحات الإعلانات الموزعة حول القاعة بدأ إعلان شركات السيد صامويل، فقال عم رمزي.

- آه، ها هو يظهر الدجال.

نظر جدي له متبسمًا ونظرت متعجبًا، عرفت في تلك اللحظة أنه معارض لنظام طاهر صامويل، ولكن لم أكن متوقعًا إلى أي درجة كان معترضًا، كان الإعلان يتحدث عن آخر الإنجازات التي توصلت إليها مجموعة شركات الـ 666، وكانت الأخبار حماسية جدًا، كان منها مثلًا، اكتشاف طريقة نهائية للقضاء تماما على وباء الهالوك، بداية الإنبات لبعض المحاصيل على المريخ، وإمكانية الوصول إلى طريقة لفك شفرة بعض الذكريات في المخ لبعض الحيوانات، وقريبا سوف يتم تطويرها لتشمل العقل البشري، كان طاهر صامويل المتحدث في الإعلان، وقال إن ذلك الاكتشاف سوف

يغير من وجه الحضارة البشرية ويصل بها إلى أقصى درجات التطور، يمكننا مثلًا أن نحمّل ذكريات من نحبه على ذاكرة حاسوب، وإذا مات جسد هذا الفرد، يمكننا أن نعيده مرة أخرى بذكرياته على هيئة تطبيق أو واقع افتراضي أو حتّى روبوت يشبهه، قريبًا تتحقق أحلام من سبقونا من علماء وأدباء الخيال العلمي.

وانتهى الإعلان بشعار الشركة وصرخ ذلك الرجل الغريب صديق جدي:

– اقسم بالله إنّه هو، الأعور الذي يخرج بعد فقر وخراب ليأتي بكنوز الدنيا، والآن يعيد الموتى للحياة، آه.. إنها آية من آياته، يستعدون لخروجه منذ فجر التاريخ، والآن يخرجونه بصورة القائد ليتبعه الناس.

بدا الرجل وكأنه في حالة فزع غريبة، بعض الناس يصيبهم الذعر من التطورات التقنية، دائمًا يقولون إنها نهاية العالم، ولكل عصر دجال، ربما كان طاهر صامويل يحمل بعض الصفات المتوافقة مع تلك الأسطورة متعددة الأقاويل، ولكنّه أيضًا أبعد ما يكون عنها، منذ فجر التاريخ ويعتقد الناس أن النهاية قد اقتربت، يصيبهم الرعب والفزع والجنون، إلى أن نسي الناس تلك الأسطورة، وتيقنوا بأنه ليس هناك نهاية لتلك المأساة البشرية، حتّى جدي كان متعجبًا من رد فعل صاحبه، حاول أن يسحبه إلى مقعده، قال له أن يهدأ أكثر من مرة، ولكنه أبدًا لم يهدأ، بل أشاح بذراع جدي بعيدًا، وذهب نحو سيدة عجوز مجعدة الشعر كانت تنظر لنا في دهشة، خبط على كتفها ووجّه الكلام إليها بصورة أكثر انفعالًا، أرعبتها وبعثت الاضطراب بين رجال الأمن فجمعوا بعضهم وتوجهوا نحوه، بينما كان يصرخ في وجه السيدة قائلًا:

–وأنتِ أيتها العجوز.. بم تؤمنين، بالمسيح، بالعهد الجديد، قرأتِ رؤيا

يوحنّا أم لم يعد أحد يقرب هذه الكتب، ألم يقل في الإصحاح التاسع إنّه "في تلك الأيام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه، ويرغبون أن يموتوا فيهرب الموت منهم" أليس هذا ما نحن فيه (ونظر إلينا) ألم يُقَل إن ذلك الرجل يستطيع أن يجعل الشهر يومًا واليوم شهرًا، أليس هذا ما نحن فيه؟

جاء رجال الأمن فأخذوا يسحبوه بعيدًا، وجدّي يتوسل إليه بأن يحفظ هدوئه، وهو يقاومهم ويصرخ من جديد في وجه العجوز:

- في الإصحاح الثالث عشر "ويجعل الجميع.. الصغار والكبار، والأغنياء والفقراء، والأحرار والعبيد، تصنع لهم سمة على يدهم اليمنى أو على جبهتهم، وأن لا يقدر أحد أن يشتري أو يبيع إلا من له السمة أو اسم الوحش، أو عدد اسمه" اتركوني، اتركوني يا ملاعين، (وأمسك بمقعد وظل متشبثًا) أليست تلك هي هذه الرقاقات اللعينة، واحذري ماذا يقول عن هذا العدد "ستمئة وستّة وستّون".

أفلته أخيرا رجال الأمن من المقعد الذي تشبث فيه، وأخذوه بعيدًا بينما ظل يصرخ متحدثًا معي:

- انظر يا بني إلى هذا الشعار المرسوم، الرقم 666 والمثلث، تخيله كلمة عربية، ثم اقرأه، ماذا تقرأ، هه أخربني ماذا تقرأ، انتظروا، أخبرهم ماذا تقرأ؟

سحبوه إلى غرفة بعيدة وأغلقوا الباب فاختفى صوته، ونظر الحضور إليّ، فقلت لهم "لا أقرأ شيئًا" فضحكوا وجلسوا في أماكنهم، وعاد الهدوء إلى المكان.

اعتذر جدي عن هذا الموقف، وكنت أفكر فيما قاله ذلك الرجل المجنون،

في كل مرة هؤلاء المتنبئين بنهاية العالم يخرجون بأدلتهم الخاصة، يأخذون ما يتوافق مع رغباتهم ويدحضون ما يختلف، لأي مدى تتوافق تلك التنبؤات مع كل عصر، ولأي مدى تختلف، الدجال أسطورة تنبأتها أغلب الأديان والحضارات، قد تكون حقيقة، وربما كذبة صدّقها أعوان الشر وحاولوا تنفيذها كما جاءت، ربما هناك فعلا شيء غير طبيعي يحدث في هذا العالم، هكذا فكّرت في نفسي وقد استرعى كلام صديق جدي المجنون اهتمامي أكثر من اللازم، نظرت إلى الشعار الذي يتحدث عنه مرة أخرى مدققا فلم أفهم شيئًا مما قال، فبددت من رأسي ما أحدثه ذلك الرجل من اضطراب، ولكن شيئًا منه ظل في أعماقي، دقائق وأضاء مقعد جدي ليشير بأن موعد سباته قد حان، وأحدثت الشريحة التي كان يرتديها صفّارات تنبيهية، وجاء المتخصصون فأخذوه بلطف، بدا على وجهه القلق الشديد، وقال لي قبل أن يذهب:

- راقب النحل.

2

عالم فارغ، ذلك كل شيء يمكنني وصفه، وكل شيء كنت أشعر به، في الصباح أسمع خرير النافورة الصغيرة في فناء الفيلا، بينما أقف في الشرفة الكبيرة برفقة فنجان القهوة، تداعبني خيالات أوراق الأشجار، أنظر إلى الشمس الباهتة خلف السحب، كل عدة دقائق تظهر سيارة أو شاحنة، تسعى من أقصى الطريق الفارغ الممتد، أراقبها حتّى تختفي في الركن الآخر من العالم، صوتها يتصاعد ثم يتنازل، ثم يعود الملل من جديد، ظهرًا نزلت لأفتح الدكان، فوجدت جل البرطمانات والأواني فارغة من العسل، كان تاجر قد اشترى كمية كبيرة منذ فترة، وليس ذلك موسم إزهار، فتحتُ خلايا النحل فلم أجد عسلاً يكفي للتعبئة، ووضعت في غذّاياتهم محلولاً سكريًا ليعوضهم عن نقص الرحيق المؤقت، ثم عاد الملل من جديد، خرجتُ إلى الشرفة واتصلت بطبيب صديق في المستشفى التي كنت أعمل بها لأسأله عن عمل:

- هل هناك فرصة للتعيين؟ أريد أن أعمل في الفترات التي تكون فيها مجموعة (أ) في السبات فقط.

- حسنا، سوف أستعلم لك عن مكان شاغر، ولكن لا تضع أملًا كبيرًا، أكبر عدد من الأطباء موجود في تلك الفترة، وقد تطورت أجهزة الفحص بدرجة قد تجعل المستشفى بلا حاجة إلى ذلك العدد من الأطباء أصلًا،

سأحاول أن أوفر لك فرصة وأوافيك بالأخبار، ولكن حتّى ذلك الوقت حاول أن تعرض طلب توظيف على الإنترنت، ذلك أضمن لك.

وانتهت المكالمة، فعُدت متخاذلًا أحصي السيارات العابرة في الطريق، بعضهم توقف عند ريست عم عز، فكّرت أن أستغل غياب جدي وأذهب فأهدده ألا يقرب النحل، وربما أتشاجر معه إن وجب الأمر، ولكن ابنته تويا كانت هناك، وذلك جعلني أؤجل القضية، حتّى لا أحرجه أمامها، ثم فكّرت أن أتصل بماريو، ربما ذلك يكسر الملل وكثرة التفكير والقلق على جدي، طلبت منه أن يأتي، أردت أن أعلمه شيئًا عن النحل حتّى إذا راعى جدي عند سباتي، ولكنّه قال "ولماذا لا تأتي أنت هذه المرة، أنا أطبخ الآن، وأدعوك على الغداء، سوف أرسل إليك موقعي، ليس بعيدًا عنك، لا تتأخر".

ولم أتأخر، كان يقطن في بيوت الأشباح القديمة، ولكن بعد أن سمعت صراخه في اللعبة لم أخبره بتلك القصة، تم تجديد المنطقة ودهانها برسومات مبهجة، ووجدت الأطفال فيها يركضون ذهابًا وإيابا بنظاراتهم يقاتلون صورًا ضوئية ويضحكون، أعادت أصواتهم الحياة للمنطقة مثلما الماء يحيي الوديان الجافة، ركبت المصعد إلى الطابق الأخير حيث يقطن ماريو، قرأ الباب بياناتي وبعد ثوانٍ انفتح، وظهر البيت فوضويًا مليئًا بالأشياء المتناثرة فوق الأرائك والمناضد، وقطٌّ سمين بالبيت رآني فلم يبال وأخذ يلعق كفّه كما كان، ثم ظهر ماريو أمامي "ادخل يا بني" ودخلت متباطئًا فأردف:

- آسف على الفوضى، سيّد عطلان وأصلحه منذ يومين.

- سيّد!

- روبوت التنظيف، اسمه سيّد، أليس لديكم روبوت في بيتكم.

- جدّي يخاف تلك الأشياء، يقول إنها أدوات تجسس.

- آه، أبناء الربع الأول من هذا القرن وأفكارهم الغريبة!

تمتمت: لو أنّك رأيت ما حدث في صرح السبات بالأمس!!

- أعرّفك على عائلتي، سيّد الشغّال، روبوت يعطل أكثر مما يعمل، وبالمناسبة لم أشترِه ولكن صنعته بنفسي من قطع غيار، وذلك يفسر حالته المزرية ومنظره الوسيم، وهذا قطي الصفير، شرودنجر.. خذ يا شوشو.

قال ينادي القط، فنهض الأخير، ثم تمطّع، ثم جلس مكانه مرّة أخرى متجاهلًا كلامه ناظرًا إليه باستخفاف وتجهم، فأشاح ماريو له..

- عنّك ما جئت.

- أنت عجيب، تسمي الروبوت سيّد، والقط شرودنجر!

- على اسم سيّد الشغال، مسرحية قديمة لم أشاهدها ولكن الاسم لطيف، وشرودنجر عالم شهير صاحب تجربة اسمها قطة شرودنجر.. أنا أحب العلوم قليلًا، لا عليك، أستأذنك سوف أكمل الطهي، لا تقلق خمس دقائق حتّى يفسد تمامًا ثم نطلب شيئًا نأكله.

ضحك ساخرًا وذهب، وأخذت أتفقد المكان، في المنطقة التي كان يصلح فيها "سيّد" رأيت أعمدة حديدية طويلة ملقاة على الأرض ملتصق بها مصابيح وأجهزة غريبة، وكان مطبخه مفتوحًا على الصالة، ورأيته يقف بعيدًا يقلي ويقطّع، قال لي:

- بالمناسبة أنا نباتي، أحاول أن أعدّل نظامي الغذائي، أتمنى أن يعجبك الأكل، ولكن إن احتجت أن تأكل شيئًا غير نباتي فلا مانع في أن نطلب

شيئًا جاهزًا.

- ليس هناك مشكلة، ما هذه الأعمدة الطويلة؟

- مشروع غريب، أعمل عليه منذ فترة ولم أنجزه بعد.

- أنت مهندس؟

- نعم، ولكن هذا الاختراع، ليس تخصص هندسي بشكل كامل، الموضوع كبير، سوف أحدثك عنه لاحقًا.

ورأيت بعيدًا عددًا من الكتب مرصوصة في مكتبة كبيرة مزينة بتحف صغيرة، وعلى الطّاولة أمامي وجدت رواية سوداء مهترئة للكاتب "ضياء الدين خليفة"، جعلت أتفحّصها حتّى انتهى مما يطبخه، تذوقه، ثم بثقه من فمه فورًا وقال:

- ياسين، اطلب لنا شيئًا على ذوقك.

ثم ألقى ما كان يطبخه كاملًا في القمامة، وعلى وجهه علامات القرف والتقزز، فضحكت كثيرًا، ثم طلبت طعامًا، جاء الطلب بعد دقائق في سلة صغيرة تطير بمراوح أمام أحد النوافذ، ذهب ماريو مسرعا ليستلمه، ذلك جعله ينظر من النافذة، فقال متعجبا:

- الشوارع أصبحت فارغة جدًا!

- آه.. لدرجة أكبر مما تصورت، أخبرني برأيك في هذا النظام؟

- حلّ مشاكل عدّة، وجلب مشاكل أخرى، أرى أن التنفيذ كان متسرّعًا، ولكن الشعوب أغلبها موافقة.

- يعجبني أنه جمع دول العالم كلها تحت نظام واحد، ذلك يضاف له، أما عن نزاهته أو لا فذلك ما هو قيد التجريب، من يمتلك سلطة هائلة مثل تلك يجب أن يكون أهل ثقة، لأن لا شيء يمكن أن يقف أمام رغباته،

لا شيء يمكن أن يمنعه من أن يفعل ما يريد.

- معك حق، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله مثلاً!

لما انتهينا من الأكل اقترح أن نلعب مرة أخرى تلك اللعبة المرعبة، لم يمض وقتًا طويلًا حتّى خرج منها يلهث، بعد ذلك نويت أن أذهب، واتفقنا أن نتقابل مرة أخرى، نزلت من عنده وقد خيّم الليل، وفي طريقي للعودة مررت من جوار ريست عم عز، ألقيت عن غير عمد وبالصدفة نظرة عابرة إلى الداخل، لفت نظري وهج أزرق، تمعّنت ودقّقت، وما رأيته قد أفقدني رشدي وأثار غضبي بدرجة لا تحتمل.

3

داخل الاستراحة وإلى جوار الزجاج وجدت حوضًا مستطيلاً مملوء بألوان مختلفة من الأزهار، وفي المنتصف جهاز صاعق للحشرات يومض بلون أزرق مستفز، هذا الأحمق يحاول جذب النحل بالأزهار ليسحقها الجهاز، لم أتمالك أعصابي، ألا يكفي هذا اللئيم ما حدث لجدي!

لم أبال بوجود زبائن، ولم أبال بوجود ابنته، دفعت الباب بقدمي حتّى كاد ينكسر، أمسكت ذلك العجوز من ياقته وسحبته من فوق المكتب، ألقيته بعزم ما أوتيت على الزجاج فانكسر وسقط خارجه، وانطلقَت صفّارات أجهزة الإنذار، وجعلت أمسك هذا الصاعق وأطرحه على الأرض وعلى حوض الأزهار مرارًا وتكرارًا حتّى لم يعد فيهم ما ينفع، ووجدت حوضًا آخر من الجهة المقابلة ففعلت فيه مثلما فعلت مع أخيه، ذلك وتويا وبعض الحاضرين يحاولون تهدئتي وإخمادي، بينما كنت أقاومهم وأطلق سبابات وتهديدات لهذا الحقير، الذي لم يستطع أن ينهض من مكانه متألمًا، حتّى حمله الناس من فوق شظايا الزجاج وظهره مفعم بالجروح والثقوب، وفجأة سمعت إنذارات سيارات الشرطة تطوف بالمكان، ووجدت عرباتهم الطائرة تحط بجوار الاستراحة، وإذا بضابطين يطلقون عليّ صاعقًا كهربيًا من مسدساتهم، فيتخدّر جسدي من هياجه وأركع هائمًا، وإذا بأصفاد تكبّلني وتكبح جماحي، وأجدني بنصف وعي محمولاً إلى

أحد عرباتهم، والناس يحملقون في وجهي الذي لا يوحي أبدا بما ارتكبت، ولا يفهمون سببًا لذلك إلا تويا وعم عز، جعلت أتأمل من النافذة بقايا ما تركته من حطام، ودهشة على أوجه الحضور، بينما كنت أحلق بعيدًا.

* * *

في غضون أسبوع واحد نمت لحيتي بصورة كئيبة، وتكوّنت هالات حول عيني من قلّة النوم، تلك كانت تجربتي الأولى في الحبس، لا أحب أن أحكي عنها، أشعر بالإهانة كلما تذكرتها، في داخل هذا المكان كنت أشعر بضيق في النفس، أسحب شهيقًا إلى أن يمتلئ صدري وأشعر أنني أريد المزيد، وكأن لا شيء يتدفق إلى الداخل، كنت قليل الكلام مع من حولي، وأغلب من رافقوني الحبس ممن حاولوا الهروب من نظام السبات، أو ممن حاولوا خلع تلك الرقاقات بطرق شتّى، لم يفلح فيهم أحد، إن آليات التعقّب والإحصاء متطورة جدًا بجهاز الأمن والشرطة، في نهاية ذلك الأسبوع الشؤم جاء شرطي يناديني، أخذني إلى غرفة الزيارات، وكان بها تويا وماريو، قالت تويا:

- أبي كتب تنازلاً عن محضر التعدي، سوف تمضي على إقرار بعدم التعرض له، وسوف نجد صرفة في موضوع النحل.

وقال ماريو: تويا من أقنعت أبيها بذلك، ولولاها لكان من حقه أن يطالبك بتعويض كبير، وافق على شروطه وسوف نفكر في أمر النحل قبل أن يخرج جدك.

لم يكن هناك مجال للرفض، كنت أخشى أن يخرج جدي فيجد الفوضى في انتظاره وذلك خطر على نفسيته، وكنت أريد أن أهرب من هنا، أومأت برأسي موافقًا، وهلل الاثنان فرحًا، كنت متعجبًا من موقف تويا الإيجابي،

شهمة تلك البنت الصغيرة، وليست كأبيها، مضيت على الإقرار وخرجنا من الظلمات إلى النور، أوصلني كلاهما إلى البيت، اشترى ماريو لنا طعامًا، واعتذرت تويا كثيرًا عن تصرفات أبيها، واضطررت أن أعتذر لها عن فقدان أعصابي، ولمّا بلغنا باب الفيلا رفضا الدخول، كنّا في جنح الليل، اتفق كلاهما على أنني يجب أن أنم جيدًا وفي الصباح نتلاقى، دخلت فتفقدت النحل أولاً ووجدته بخير، ثم انطلقت إلى الفراش، ولم يزُرني الوعي إلا في باكورة الصباح، عندما سمعت صوت جرس الفيلا وخبط ثقيل على الباب، فتحت الكاميرا فإذا بعدد كبير من رجال الشرطة، ثم وضع أحدهم يده على العدسة فأضحت شاشة سوداء، نهضت في فزع، ألن تنتهي النكبات هذا الشهر! نزلت إلى الطابق السفلي مهرولاً وأمام الباب المغلق توقفت قليلًا حتّى تهدأ ضربات قلبي المضطربة، فكّرت أنه لو كان أمر شديد الخطورة لاقتحموا الفيلا بسياراتهم الطائرة، ولكن ليس لديهم إذن بذلك وهذا يطمئنني بعض الشيء، ولكن خبط عزيم على الباب زلزلني وأعاد الاضطراب إلى قلبي، فأشرت لينفتح الباب آليًا ببطء، ومن خلفه مشهد يتسع تدريجيًا لعدد من رجال الشرطة وخلفهم عم عز!!

- هذه فيلا يحيى العسّال؟

سأل أحد الضباط، وأجبته مترددًا بينما أنظر لوجه عم عز الذي يحاول حبس ابتسامة انتصار، قُلت: نعم، هي.

- أثبت عندنا أنّكم تبيعون عسلاً مغشوشًا، وهناك اشتباه في حالات تسمم، سوف نشمّع الدكان، ولكي تفتحه مرة أخرى سوف تطلب لجنة تقييم الأغذية ثم ترفع دعوى وتدفع غرامة.

- نحن لا نبيع منذ فترة طويلة.

- صدّقني لا أعلم الكثير من التفاصيل، أرسلنا على إيميل جدّك رقم القضية والتفاصيل.

- إيميل جدي!! إنه يطبق فترة السبات.

- لا مشكلة، سوف يجدها عندما يخرج.

وأجبته في توتر شديد: بل مشكلة بالطبع، جدّي عنده مشاكل نفسية، لا يجب أن يتعرض لضغط أو صدمات، أقسم لك لدينا منحل بالداخل وجدّي خريج زراعة ويمارس صناعة العسل منذ فترة طويلة، ويبيع لتجار كبار في المدينة، يجب أن يفتح هذا المحل قبل أن يخرج جدي، كم يستغرق من الوقت حتّى اثبت أن العسل سليم.

- حوالي شهر، الأمر نسبي.

- حسنًا، أشكرك.

رحل رجال الشرطة وظل عم عز واقفًا، لم أنبس ببنت شفة، كان يدخن شيشة إلكترونية صغيرة، ارتشف منها نفسًا ثم زفره وقال "اسمع يا ياسين، أنا لا أريد شرًا لك ولا لجدك، كان باستطاعتي أن أطلب تعويضًا منك على ما سببته لي من خسائر، ولكني رفضت، ويمكنني بسهولة أن أعيد فتح هذا الدكان لك، بشرط أن تبعد النحل المزعج عن استراحتي، بإمكاني أن أرش مبيدات لتعدم النحل تمامًا بدلا من الصاعق، ولكني لا أريد أن أتسبب في المزيد من الخسائر، ابعد تلك الحشرات عن منطقتي، وإلا سوف أرفع شكوى أن النحل يزعجني، وأرغمك على إزالة هذا المنحل بأكمله، أنا تخصص محاماة، وأخبرك أن هذا من حقي تمامًا.. أراك لاحقًا".

4

ليس هناك مفر، تهجمنا على الرجل أنا وجدي وانتقم بطريقته، اتصلت بماريو فورا وسردت له ما حدث. حضر سريعًا، وفكّرنا في أن نبني سور من الشبك الحديدي ذي الثقوب الضيقة بطول ثلاثة أو أربعة أمتار فوق سور الفيلا، وأن نزيد من النباتات المزهرة في الداخل، وان نبعد المنحل في أقصى مكان من الفيلا، وذلك أمر مجهد لو تعلمون، كان هناك عدد من النخيل والأشجار في تلك المنطقة، ولكن علينا أن نوفر صدادات رياح أقوى حول المنحل لتحميهم في الشتاء، وأن نزيل الحشائش بتلك المنطقة حتى لا تجلب الحشرات المتطفلة، وبنينا مظلة لتقيهم الشمس في الصيف، وكل تلك الإجراءات كان علينا أن نتممها أنا وماريو وتويا قبل خروج جدي، مر أسبوعين ولم ننتهي تمامًا من العمل، واقترب موعد خروجه، توسطت تويا عند أبيها ليفتح لنا الدكان بحجة أننا تصرفنا في موضوع النحل، وفي اليوم التالي بالفعل أخذنا من الشرطة إذنًا بفتح الدكان، وجاء يوم خروج جدو يحيى من السبات، إن عملية التبادل بين المجموعتين تجرى خلال يومين وعلى أربع فترات، وذلك منعًا لازدحام الطرقات، في نهار اليوم الأول يخرج نصف المجموعة (أ)، وفي الليل يحل محلها نصف المجموعة (ب)، وفي اليوم التالي يجرى بالمثل على النصفين الآخرين، ولحسن الحظ أن جدي من المفترض أن يخرج في اليوم الأول، بينما أذهب أنا في ليل اليوم الثاني، وذلك يعطيني يوم أقضيه مع جدي،

ذهبت لأستقبله، وكان معي تويا وماريو، بعد ساعات قليلة وجدناه يخرج لنا مبتسمًا، فهللنا ثلاثتنا واستقبلناه في سعادة بالغة:

- كيف كانت التجربة معك يا جدي؟

سأله ماريو، وأجاب بصوت مبحوح وهو ينظر لنا في دهشة:

- عجيب هذا! هل مر شهر بالفعل، لقد نمَت لحيتك يا ياسين، سبحان الله! شعرت أنها غفوة، أو ساعات من النوم.

- حقًا، ألا تشعر بأي شيء غريب؟

سألته وأجاب: آه.. آلام في العظام، صوتي مبحوح وتشوش بسيط في الرؤية، أغلبها أعراض تأتيني عندما أنام لفترة طويلة على فراش غير مريح، ولكني لا أشعر بالنعاس، بل أشعر أن ضربات قلبي سريعة وأنفاسي تتلاحق.

- حمدًا لله على سلامتك يا جدو يحيى!.

قالت تويا، وأجاب جدي: سلّمك الله يا ابنتِ، ليت أبيك خلوقًا مثلك.

لم يكن مزاج جدي سيئًا عكس ما توقعت، ولكن كل ذلك تغيّر فور وصولنا إلى البيت، احتدم وثار وهبّ صارخًا:

- ما هذا السور اللعين، أتسجنونني، تبنون لي سجنًا، أتريدون حبسي، لعنكم الله، أين أنت.. لماذا تركتني هنا.. خذني إن كنت تسمعني حقًا، لم أعد أصلح للحياة.

- اهدأ يا جدي أرجوك

- ابعد عنّي، لا أريد أن أراك، آه.. آه

وظل يصرخ حتى هوى على الأرض هامدًا.

* * *

قطرات من الزيت تدفقت من طرف نصل الحقنة فلمع فيها وهج

مصباح الغرفة، تأكدت أنها فرغت من الهواء، دفقتها في جسد جدي الهامد على الفراش، ساعدني ماريو على نقله، أرى أن هذه الحقنة ثقيلة عليه، ولكنّها ما نصحني بها صديقي الطبيب النفسي، أضاءت رقاقة تويا منبّهة أن وقت سباتها قد اقترب، تويا في المجموعة (ب) مثلي، ولكن السبات يطبّق عليها في اليوم الأول، اعتذرت وذهبت، وقضيت الليل كله بجوار جدي، كان يهذي، أحيانًا يطلب شربة ماء فأسقيه، وأحيانا ينادي على أبي: "يزيد يزيد، لقد حلمت أنني كنت عجوزًا، يزيد.. تعال يا بني".
كنّا في أشد القلق عليه، قضي ماريو هذا الليل العصيب معي، إلى عصر اليوم الثاني ولم ينهض جدي من مكانه، أجريت اختبارات فحص عليه فوجدت أن ضغطه منخفض قليلًا، وأضاءت رقاقتي منبّهة لوقت السبات، أعطيت ماريو بعض النصائح الطبية للتعامل معه، وانتظرت لآخر لحظة ممكنة وهو يغط في نومه، لم أرغب أن أوقظه، وذلك ما نصحني به صديقي، ومع غروب الشمس تركت ماريو معه، طلبت سيارة، واتجهت نحو صرح السبات وحيدًا.

5

في تلك القاعة بينما انتظر دوري الذي اقترب ارتديت نظارتي أتابع بعض الأخبار، وتناثرت على الصحف المختلفة مقالات عن أعداد بالآلاف من الوفيات أثناء تأدية نظام السبات، اعترى الخوف جسدي، وشعرت بقلق ورجفة، ولكن آراء الخبراء ومختلف الإعلاميين تتحدث عن أن هذا هو المعدل الطبيعي للوفيات حول العالم، بل أن هذا العدد من الوفيات خلال شهر معدل أقل من الطبيعي، وأن موت هؤلاء هو فقط قَدَرهم وليست مشكلة أبدًا في نظام السبات، خلق ذلك سكينة في جسدي بعض الشيء، ولكن خطر ببالي أنهم قالوا إن فترة السبات تلك ليست محسوبة أصلًا من عمر الفرد، فكيف يموت المرء في فترة غير محسوبة من عمره!

ظلت الأفكار تتصارع في رأسي ويتوغل القلق في أعماقي مع كل دقيقة تمر، طال الانتظار حتى ارتعدت أطرافي وشعرت بالدوار، وبدأت القاعة تفرغ من الناس، ثم جاء أحد المختصين بغتة يسلبني من شرودي قائلًا:

- دكتور ياسين، نتأسف على التأخير، هناك عطل فنّي بسيط، دقائق حتّى يتم إصلاحه ونطلبك فورًا، لا تقلق.

ثم ذهب مبتعدًا دون أن أجيبه بكلمة، ووجدت نفسي لا إراديًا أتبعه دون حتى أن يلاحظني، بوابة عظيمة وبالداخل عن يميني وعن يساري ممر عريض سقفه شامخ لعدة أمتار، وأمامه عدد من الطوابق يصل إلى حوالي عشرة، وكل طابق أرضه من زجاج تبصر من خلاله ما فوقه وما

تحته، وعدد من المصاعد موزعة على طول الممر تصعد وتهبط بين تلك الأدوار، كل طابق به عدد كبير من كبسولات السبات، مصفوفة كرقع الشطرنج، وبين كل كبسولة والأخرى ممر صغير من الزجاج، أخذ الرجل يتوغل بين الممرات وأنا أتبعه، أنظر حولي فأتأمل عددًا مهولاً من كبسولات السبات، كمثل من ينظر إلى مرايا متقابلة تعكس صورًا متماثلة، للمكان هيبة ورهبة عجيبة، ينبث صوت موسيقى لعزف بيانو خافت جدًا يوحي بالرعب أكثر منه بالطمأنينة، يشوبه خطى العابرين الأقلاء وهمساتهم، فوق كل كبسولة مصباح يضيء، والكبسولات نفسها تومض بالأزرق البارد أو بالأحمر، واستنتجت أن الأحمر يعني مكانًا شاغرًا بالكبسولة، والعكس بالعكس، جعلت أدنو بوجهي على زجاج الكبسولات الزرقاء، فإذا بوجوه جامدة خلف ضباب دخاني لرجال أو نساء يغطّون في نوم عميق، يرتدون جميعهم نفس العباءة البيضاء، توقف الذي تبعته أخيرًا عند كبسولة في الزاوية البعيدة، كانت مضاءة بالأحمر وتصدر صفارات تنبيهية، حولها عدد من المختصين، ذهب الرجل إليهم وتوقفت محاولاً استراق بعض النظرات داخل الكبسولة، فإذا بفتاة نائمة ذات وجه ملائكي، ملامحها بسيطة، شعرها ينسدل بخفة أسفل رأسها، وخصلات رفيعة منه فوق كتفيها وحتّى مطلع صدرها النابض، عنق أبيض رقيق، رموش معقوفة، شفاه وردية، وأنف دقيق، سمعت أحدهم يهمس "وصلت نقّالة الطوارئ" وبدا على وجوههم أن الفتاة في حالة خطرة، انتابني شعور بالشفقة والقلق، انفتحت الكبسولة بغتة فانبعث صوت تفريغ هواء، تحرّك الطاقم يحملها من الفراش الذي كانت عليه إلى نقّالة الطوارئ، ثم انطلقت النقّالة آليا وسائر الطاقم حولها، وصولاً إلى قاعة مكتوب فوقها (حالات

طارئة) حيث أخيرا لاحظني أحد رجال الأمن على مدخلها فمنعني من الدخول، وبدأ يسألني "كيف دخلت إلى هنا؟" تلجلجت ولم أجب من التوتر، فأخذني إلى الممر العظيم ومنه إلى باب الخروج، ثم تركني في نفس القاعة الواسعة، وظهر الرجل الذي كان معي منذ قليل:

- دكتور ياسين، بحثت عنك كثيرًا، أين اختفيت، تعال معي.

أومأت برأسي موافقًا، حالة من الدهشة أثقلت لساني، تبعته إلى غرفة بها عدد من الأبواب، أعطاني أحد تلك العباءات البيضاء، قال:

- صُنّعت خصيصًا على مقاسك، معقّمة وسوف تريح بشرتك أثناء السبات (ثم أشار إلى غرفة صغيرة) بدّل ملابسك هنا، واترك بالداخل أي متعلقات خاصة بك، هذه غرفة باسمك حتّى تنتهي فترة سباتك، ولن تفتح إلا ببصمة وجهك، خذ وقتك.

- حسنًا، شكرًا.

بدّلت ملابسي، خرجت، وانغلقت الغرفة فأضيئت حواف الباب بالأحمر، وانكتب عليه اسمي ورقم الكبسولة، رافقت الرجل، ووجدته يتوجه بي إلى نفس الكبسولة التي كانت بها الفتاة، رغم تشابه الطرقات كنت متأكدًا أنه نفس المكان، ذاكرتي لا تخونني، سألته:

- ألم يكن هناك خلل في تلك الكبسولة.

- لا، لا تقلق أبدًا، إنها مجهزة على مستوى احترافي، ستشعر أنك نمت لسويعات قليلة.

لم أنبس ببنت شفة، في لحظات القلق تُمحى الكلمات من رأسي، ويركبني صمت أخرق، ضغطَ على شاشة الكبسولة فانفتحت، وتحول الفراش إلى مقعد، أشار الرجل باسطًا كفّه متبسمًا فجلست، سأل عن مقدار السكر

الذي أحبه في المشروبات، "مضبوط" أجبته فأعطاني زجاجة صغيرة من عصير طيب الطعم، قال إن ذلك يمد الجسم بالعناصر المناسبة أثناء السبات، شربته ثم قال "استرخِ" اتكأت برأسي على المقعد، وأخذ ينساب بلطفٍ حتى تدلّى تمامًا، وارتفع بساقاي فأصبح فراشًا مريحًا، ثم اندس برفق إلى داخل الكبسولة وانغلق الزجاج، انكتب فوقي تاريخ اليوم والساعة، شعرت بطقس بارد بعض الشيء، وبدأ وزني يخف، أخذ بخار أبيض عديم الرائحة ينساب من الجانبين، ثوانٍ تدفق فيها إلى ذاكرتي حال جدي وصورته في الفراش، عدد المتوفين في الأخبار، ملامح تلك الفتاة التي كانت في نفس المكان منذ قليل، شعرت بخوف، ولكن بعد ذلك شعرت باسترخاء وهدوء شديد، وجاء صوت أنثوي لطيف يقول "نومًا هنيئًا"، بهتت الإضاءة تدريجيًا، ثم تلاشى كل شيء من الوجود.

الفصل الرابع

1

دجنة غاسقه تحوم من حولي، وضربات قلب غارقة في ظلام دامس، دقّات تدوي مدرارًا في أعماق مسامعي، وحدها تدور في فلك وعي أجوف معتم، لا ذكريات، لا شعور، لا شيء إلا ذلك الصوت، مثل نجم وحيد في ليلة قاتمة، لحظات مرّت حتى بدأ الصوت ينخفض تدريجا، متبدلاً بصفير خافت، الآن أشعر بجسد ثقيل خامل، وكأنني أعود إلى الحياة، أحاول تحريك أطرافي، فتأبى، تتمرد، فأخضع لها، مكبّلا، ساكنًا، أقاوم فلا ينصاع إلا جفن واحد، يجيب متثاقلاً، وينفتح في تردد وبطء شديدين، وإذا بضوء ساطع كضوء الشمس يخترق بجيوشه بوابات إبصاري، فيذبح الظلام، وينتشر مكانه لونٌ أحمرٌ محتدم، وكأن سائلاً ذا وهج دموي يترقرق فوق مقلتي، ثم يجيب الجفن الآخر، فينفتح بتقاعس، ليُباغته اللون الأحمر مبددًا كل ما سواه.

بضع ثوانٍ وبدأ الوهج يهدأ رويدًا، وظهرت غشاشة خطوط مستقيمة، أخذ الضوء الأحمر يتجمع فيها متضائلًا، وانبلج من حوله في رؤية مضطربة ملامح كبسولة السبات، استجابت أصابع أطرافي لأوامر الحركة فأخذت أقبض كفي وأبسطها، وأباعد بين أصابع أقدامي وأحركها، بدأت أشعر

بالدم يتحرك فيهم، بعناء حملت ذراعاي، وضعت كفّي الأيمن إزاء عيني حاجبًا ذلك الضوء الساقط عليها، وكفّي اليسرى على رأسي لتخفف من حدّ صداع وإرهاق شديد، من بين السبابة والوسطى تبين لي أن تلك الخطوط المتوهجة الحمراء ليست إلا ضوءًا خافتًا لشاشة سوداء يرتسم عليها بالأحمر أرقامًا تحدد تاريخ اليوم والساعة، أيقظتني الدهشة!

يا الله! هل مرّ شهر حقًّا!! كنت أغط في سبات عميق، ولكن شعرت أنني لبست يومًا أو بعض يوم، قالت الكبسولة "صباح الخير" وعقّبت ناطقة بتاريخ اليوم والساعة والطقس، أخذت تنفتح، بينما ينصح الصوت الأنثوي ببعض التمارين الرياضية لتنشيط العمليات الحيوية وحركة العظام، قام ظهر الفراش وانحدر إلى الأمام ليعود مقعدًا كما كان منذ شهر كامل، شهر كامل! ثم وجدت رجلاً يقف أمامي مرتديًا ملابس طاقم المختصين.

- حمدًا لله على سلامة حضرتك.

قال هذا وأعطاني نفس العصير الذي شربته بالأمس البعيد، رافقني إلى صرح الخزائن، تبعته شاردًا، أتفكّر فيما حدث خلال ذلك الشهر، هل كل شيء على ما يُرام؟ أم يستنظرني شرّ ما؟؟ بدّلت ملابسي، حاولت التفاؤل، وخرجت إلى القاعة الواسعة فلم أجد أيّهم في انتظاري، خَيَّمَت سحابة الشؤم فوق رأسي ونصبت أوتادها، طلبتُ سيارة للبيت، ظلّت الأفكار تداهمني بوابل من الظنون الرجيمة، وفي كل مكان لافتات ضوئية باسم النظام العالمي الجديد، الشعار الشهير، ووجه طاهر صامويل، ذلك الخط الفضي الذي يفصل بين نصفي وجهه، شعره الأسود الطويل المضفور، منكبيه العريضين، وابتسامته الدائمة، "نعم للنظام العالمي

الجديد"، ربّاه!! لماذا يروجون لنظام تم تطبيقه بالفعل!

اقتربت من البيت، وجدت استراحة عم عز مفتوحة، ألقيت نظرة إلى الداخل، ليس بها إلا تويا، وجدار الفيلا عليه نفس السور الحديدي الجديد، وتضوي مصابيحه بنفس الأنوار الصفراء الباهتة، في قلب النهار، فتح الباب ببصمة وجهي، ومنه إلى الساحة الواسعة، ضغطت جرس الدار وأنا قلق على جدي المريض، وقبل أن أفتح باغتني ماريو بفتحه من الداخل، ومن خلفه صوت قهقهات عالية.

- ياسين!! خرجت مبكرًا، خرجت تويا في وقت متأخر عن ذلك بالأمس، كيف حالك يا صديقي.

قال ماريو وهو يعانقني بشدة، ونظرتُ خلفه في دهشة بالغة، في منتصف صالون الفيلا يجلس الثلاثة حول طاولة واحدة، يلعبون لعبة ما، جدو يحيى، وعم رمزي -ذلك الرجل العجوز الذي أحدث بلبلة في ساحة السبات- ومعهم عم عز!! نظرت إلى ماريو مشدوها، وقال:

- نبشت المدينة بأكملها حتّى وجدت لهم لعبة الدومينو. تلك الأشياء نادرة جدًا هذه الأيام.

- دومينو!!

2

– جدو يحيى تعب جدًا، ماريو كلمه وفهمه أن السور لمصلحة النحل، حتّى لا يضايقه المارة، أو تخبطه السيارات العابرة، ذلك سيرفع من مستوى تحليقه، وسيبقيه بشكل أكبر في منطقة أكثر أمانًا، واقتنع جدك بسهولة.

ذلك ما قالته تويا، كنت أجلس معها في الاستراحة تلك الليلة، بعد أن نام جدي، وبعد أن ذهب ماريو مع عم عز إلى صرح السبات، استقبلني جدّي بلهفة وحنين، في الحقيقة لم يستوعب إدراكي غيابي عن العالم لمدة شهر إلا بعد ذلك الاستقبال، سلّمت على صديق جدي النحيف -رمزي- وعلى عم عز، مددت له يدي ولازلت متعجبًا من وجوده هنا، سألت ماريو عما فاتني من أحداث عظيمة، ولكن لم يكن لديه وقت للأحاديث، عليه أن يذهب وعم عز للسبات، قال "لا تقلق، كل شيء حكيته بالتفصيل لتويا، هي ستخبرك" ثم أخذ عم عز وذهبا معًا.

– من حوالي أسبوع تحدث ماريو مع أبي، أقنعه أن زيارته لجدو يحيى أثناء مرضه سوف تخفف من سخطه على الواقع، والدي وعده أن يزوره عندما أخرج حتى أقف في الاستراحة بدلًا منه، وجدو يحيى قد طلب من ماريو أن يعثر له على صديقه رمزي، قال إنه كان رفيقه في الأوركسترا يومًا ما، يبدو أن جدك عازف بيانو متقاعد، وفي صباح اليوم التقى الثلاثة، أبي وجدك وصديقه، هذا كل شيء.

كانت السماء تمطر في تلك الأثناء، وتويا مصابة بالزكام، فليس أمرًا شائعًا أن تغمض عينيك في الصيف وتفتحهما في الشتاء، صوت المطر يتعالى، وتملأ قطراته الكثيفة نافذة الاستراحة من الخارج، وزفير الأنفاس يندي الزجاج، كل ذلك بدد أشعة الضوء، وجعل الرؤية بالخارج غير واضحة، وقفت أضواء مصابيح سيارة غريبة تشحن الكهرباء، ونزل منها شخصًا بالغًا وطفلين، لم يتبين ملامحهم إلا بعدما فتحا زجاج الاستراحة، أم لطفلين جائعين بللهما المطر، انطلق الطفلان في الاستراحة يتناولان ما طالت أيديهما من الحلوى والأطعمة، وجاءت السيدة لتدفع ثمن الشحن وما تناوله الأطفال، ولكن يبدو أن ما في حوزتها من عملات إلكترونية لا يكفي لتغطية هذه التكاليف، فقالت في خجل بالغ:

- آسفة، ولكن زوجي لم يحول لي العملات بعد، هل تقبلون الدفع بالذهب.

- نعم نقبل، لا مشكلة.

الدفع بالذهب هي آلية جديدة لدفع النقود بعد أن انعدمت قيمة النقود القديمة، وكمية تلك العملات المحولة أحيانا لا يكفي شراء كميات كبيرة من البضائع وما شابه، فكان الذهب عملة بديلة مؤقتة، تعترف بها أغلب الشركات والمحلات والبنوك، أعطت السيدة خاتمها لتويا، وقبلته الثانية في خجل شديد، سيدة تشحن سيارتها وتشتري طعامًا لأطفالها مقابل خاتم زواجها! وزنته تويا وقدّرت سعره، ثم حولت لها الباقي على محفظتها الإلكترونية، عملات علها تساعدها على تكملة الطريق، ذهبت السيدة، ومرت دقائق أفكر في ذلك النظام الجديد، وهل هو الحل فعلا لكل ما مررنا به، أم مجرد مشكلة جديدة، عطست تويا بغتة، فأخرجني الصوت عن شرودي، وانتبهت لها فزعًا فسألت:

- ما الذي يشغل عقلك؟

أخذتُ من الضيق شهيقًا يوسع ضيق صدري، وارتشفت بعض القهوة التي كانت أمامي، ثم قُلت:

- كيف كانت تجربتك مع السبات؟

- هذا ما يشغل عقلك؟!

- نوعًا ما، أشعر أن هناك شيء غير طبيعي، مؤامرة، كذبة سياسية، أو سرّ ما يخفوه عن العالم، قبل أن أدخل الكبسولة تصفّحت الأخبار، إحصائيات عدة عن موتى بالآلاف في مختلف بقاع العالم، ولمّا خرجت، كل تلك الأخبار والإحصائيات تم حذفها، ولا أخبار عن أي موتى في مجموعتنا، مدعاة للظنون!

- هذا غريب!، متأكد أنها أخبار حذفت، ليست خيالات أو شكوك في رأسك، أو كابوس ما.

- كيف لي أن أتوهم، اقتراحات البحث تحفظ آخر اهتماماتي، ثم أن هناك تلك الفتاة الجميلة، التي لا أعلم كيف كان مصيرها.

- جميلة!

قالت متعجبة، وحكيت لها حكاية الفتاة بالتفصيل، كنت أتحرك ذهابا وإيابا في الاستراحة وأنا أصف كل شيء بدقة، أشير بيدي على ما هو موجود في خيالي، وعند وصفه تلك الحسناء وقفت بعيدًا، أبعدت عيني عن تويا، وتحدثت بهدوء وارتباك، ونسيت البرد والمطر، ولمّا انتهيت قالت:

- حسنًا، لماذا لا نبحث عن تلك الفتاة، وجودها يؤكد قصتك، ويمكننا أن نعرف السبب الحقيقي لتأخرها، هل هي مشكلة فيها أم في الكبسولة، ألست طبيبًا؟؟

- طبيب متقاعد، درسنا الأمراض العادية، ولكنّها فكرة جيدة.

ولم نتردد أبدًا في البحث عن تلك الحسناء، الفكرة عظيمة، وأول معطى.. رقم كبسولتي، كان علينا أن نستخرج معلومات سرية، أسامي الأفراد الذين يدخلون الكبسولة رقم كذا، ولكن هذا لم يكن سهل أبدًا، جربنا مرارًا وتكرارًا، وبطرق عدة، وعلى فترات طويلة، سألنا معارفنا وبحثنا في مواقع مختلفة محلية وعالمية، ولكن لا شيء مفيد، وذهبنا إلى صرح السبات، ووصلنا إلى نفس العامل الذي رافقني أثناء دخولي السبات، سألته: أتذكرني؟

أبرز شفتيه وقال وهو يميل كفه: نوعًا ما.

ذلك الأبله!! كيف لا يذكرني، ألم يناديني باسمي ذلك اليوم وقال "د. ياسين، بحثت عنك كثيرًا" شعرت من البداية أنني أتعامل مع أحمق غبي، نظرت إلى تويًا مستنكرًا، ثم أردفت:

- أنا الذي دخلت السبات متأخرًا، عندما كان هناك مشكلة في الكبسولة، بحثت عني كثيرًا حتى وجدتني.

- آه، أذكر موقفًا مثل هذا، اعذرني أتعامل مع مئات وليس عليّ أن أحفظ كل وجه أتعامل معه.

كانت نبرته مستفزة، وأنا سريع الغضب، والحديث من أوله لم يكن مشجعًا.. قُلت:

- لا عليك، أسألك عن الفتاة التي دخلت قبلي في نفس الكبسولة، وكانت في حالة طارئة، هل هي بخير، أريد أن أعرف اسمها، أي معلومة عنها.

- حالة طارئة!! لا أعرف.

بدا مرتبكًا، وأغضبني استنكاره، ووجدتني ثائرًا أمسكه من ياقته وأرُجّه.

- كيف لا تعرف، ألا تذكر هذا الموقف، هل هذا أيضًا موقفٌ يتكرر كثيرًا.

فقال بنبرة منخفضة:

- اهدأ يا رجل، أنا مجرد عامل متدرب على تهدئة مخاوف من يدخلون السبات، لا يجب أن أخرج لك أي معلومة، أنا لا أعرف مصير تلك الفتاة، ولا أذكر أي معلومة عنها حقًا، ولو أعرف فهي معلومات سرية لن أستطيع أن أخرجها لك ولا لتلك الصحفية التي ترافقك، تأكد أنه لا شيء يدعو للقلق، وأرجوك يكفي هذا واخرج فورًا قبل أن أستدعي رجال الأمن.

- أنا لست صحفية.

قالت تويا، ورأيت أنه لا فائدة من التحدث مع هذا الرجل أو أي من العاملين، إنه خائف، لقد تم تحذيرهم من إخراج أي معلومة، هذا واضح، تأكدت حينها من أمر مسح المعلومات على الإنترنت، وعدم انتشار أي أخبار جديدة، هناك سر غريب!

- يكفي هذا، هيا بنا.

قُلت، وأخذت تويا وذهبت، وعلى مدار أيام تصفحت على الإنترنت وجوه آلاف البنات القاطنين بنفس الدائرة، ولكن أبدًا لم أجد مثيلاً لها، ذلك الوجه الذي حُفر في ذاكرتي.

3

الشمس تذيب برد الشتاء، وتنبت الدفء، ذات يوم جلسنا في فناء الفيلا، بين الأزهار وعروض النحل الراقصة، وإلى جوار النافورة الصغيرة، أنا وتويا وجدي وشرودنجر -قط ماريو العجوز- والعلاقة بين جدي وشرودنجر توطدت كثيرًا، حتّى أنها أصبحت أقوى من العلاقة بين شرودنجر وماريو نفسه، ربما لأن جدي يحب الحيوانات أكثر من البشر، وربما لأن كليهما قد هرما، وبين الكهول تفاهم خاص، وبينما كنت أفكر في ذلك ضرب جرس الفيلا، وعلى سيرة الكهول نظرت في شاشتي لأجد على الكاميرا وجه رمزي صديق جدي، علي أن أذهب لأفتح له بنفسي، كل الأقفال الحديثة جدي لم يؤمن بها أبدًا، لا يشعر بالأمان إلا مع الأقفال اليدوية، وفي وجوده يجب أن أغلق الفيلا بها.

- إنه صديقك رمزي.

- افتح.

أمرني جدي، فنهضت وأتمتم:

- ثلاثة أو أربعة أقفال يدوية يغني عنها قفل إلكتروني واحد يفتح من بعيد.

- إنها فيلا، ليست هاتفًا نقالاً، تلك الأقفال القديمة لا يمكن اختراقها يا جاهل.

فتحت الباب، سلم عليّ عم رمزي:

- يبدو أن جدك زعلان منك، صوته عالٍ، ماذا فعلت يا ولد يا ياسين؟

- لا أجرؤ أن أضايقه، لا تقلق، يمكنك أن تناديني دكتور ياسين إن أردت.

- دكتور، هه هه هه هه، رحم الله أيامًا كنت تتبول فيها على بنطالي هه هه هه.

نكتة سخيفة ضحك عليها الجميع، ذهب عم رمزي وجلس على مقعدي، فذهبت لأحضر مقعدًا آخر، أخرج سجائرة وأعطى واحدة لجدي ولي فأشرت له أنني لا أدخن، هذا الرجل الذي دخل عالمنا فجأة، أن تغيب عن العالم وما فيه شهر، ذلك شيء يشعرني بغربة، سلّم على تويا وقال:

- خطيبتك الحلوة هذه؟

- جارتنا، بنت عم عز، وصديقتي.

- ياسين مثل أخي، وأكبر مني بعشر سنوات.

عقّبت هي على كلامي، وأجابها:

- أنا أمزح معكِ، هه هه هه.

خجلت تويا، والحقيقة أنا أيضًا، تويا صديقة وفية، وصغيرة، لم ولن أفكر فيها إطلاقًا بتلك الطريقة، ولا أريد منها أبدًا أن تشعر بعكس ذلك.

- تعيش في آخر الدنيا يا يحيى، كيف لي أن أقطع كل هذه المسافة.

- أهرب من زحام البشر المزعجين، ثم لا يمكن تربية النحل في المدينة.

- أخذك النحل منّا يا صديقي.

وجعل الاثنان يداعبان القط الجالس على الطاولة الخشبية، وكأنه ملك جليل يجلس وسط الخدم، وذهبت تويا لتعد القهوة، ولمّا جاءت قالت لهما:

- سمعت أنكما كنتما زميلين عازفين في الأوركسترا.

- عزفنا في الأوركسترا، وأنشأنا فرقة خاصة، غنينا أغانٍ كثيرة على طريقة الريجي، ولكن توقفنا بعد فترة.

- آه أيام.

هكذا عقّب جدي على حديث عم رمزي، لم أسمع جدي يغني من تلك الأغاني أبدًا، شعور مُلِح جعلني أريد أن أسمعهما:

- هلا تغنيان؟

- آه، ذلك أمر انقضى وطواه الزمان.

احتج عم رمزي، ولكن تويا ألحت كثيرًا بطريقتها الطفولية "أرجوكما أرجوكما"

- حسنًا.. من أجلك يا فتاة!.

قال جدي بنفسه، وأومأ لعم رمزي وكأنه يطمئنه، ثم بدأ يفتعل صفيرًا بفمه، قليلًا وشاركه صديقه، لحن عذب من الصفير وفرقعة الأصابع، لحن كلاسيكي هادئ، وكلمات بدأها كلاهما متبسمين، وفي تعبيراتهم وكأنهم شباب يعودون إلى الحياة:

"انشر سلام بين البشر، مش جايز تسرح في الكون، انشر سلام بين البشر، لو قادر تفرح بجنون، انشر سلام بين البشر.

خلي الشجر يطرح طموح، كل الهموم لازم تروح، غصن الزيتون ويّا الحمام، يخلق سلام يطوي الجروح، شمس النهار تضوي المرار، تخلق مسار جنة ونار،

خلي الشقوق تملا الكفوف، اتعب عشان تجني الثمر.

مش جايز تسرح في الكون، انشر سلام بين البشر، لو قادر تفرح بجنون، انشر سلام بين البشر.

عمر الظروف ما تهد فكرة، فكر تهد أنت الظروف، انسى اللي فات واستنى بكرة، ضي النجوم، يمحي الغيوم، ارمي السلام على كل حتة، جمعت اتنين في يوم..

عدوا سوا، غنوا سوا، غنوة العمر اللي مر..

ارمي السلاام على كل حتة، جمعت اتنين في يوم، عدوا سوا، غنوا سوا، غنوة العمر اللي مر".

كنت في أشد انتباهي، اللحن، الكلمات، إحساسهم وهم يغنون، فرقعات أصابعهم، هزهزات رؤوسهم، ولمعة الشباب في أعينهم، انتهوا ولحظات من الصمت، حتّى همهم جدي، كلمات أخرى، ولحن جديد، لا يقل عمّا يسبقه روعة وكلاسيكية، يشاركه صديقه الغناء.

"بيقولو شاب، وادي عمري شاب

مل الشباب مني

حب الشباب، حب الشباب،

وجه عندي خاصمني

جايز يجوز عمري العجوز،

وأنا نفسي أعيش سني".

كلمات تكرر بألحان مختلفة، تثير المشاعر بطريقة غير عادية، وغنيا أغنية ثالثة تحدثا فيها عن الصحبة وكيف يفتقدان أيامهما في الماضي، لم أنس هذه الأغاني، خاصة الأولى، كررتها في نفسي، وحفظتها عن ظهر قلب، وكانت مرجعًا بعد ذلك للكثير من قراراتي.

4

تدفقت الأوجه كالشلال عبر البوابات، من بينها كنت أبحث عن وجه ماريو، حسب جدول الأسماء من المفترض أن يخرج خلال دقائق، أصبحت أخاف انتظار السبات مذ رأيت تلك الجميلة النائمة، ولكنه خرج في موعده، ناديته فجاءني، سلمت عليه كمن غاب في سفر طويل، وسلم عليّ بفتور، وهو لازال مشدوها من التجربة، لا يصدق أنه قد غاب لشهر كامل، أعرف ذلك الشعور.

لم يعد بيته مبعزقًا مثل المرة السابقة، كان مرتبًا بعض الشيء، انتظرته حتّى بدّل ملابسه، ثم خرج فقال.

- اسمع يا ياسين، انس الطبخة السابقة، اليوم سأطبخ لك أكلة جربتها كثيرًا قبل ذلك ونفعت.

- أرجوك، لنوفر الوقت ونطلب من البداية، سوف أعزمك.

- والله أبدا، ستأكل من يدي يعني ستأكل من يدي.

- ماريو.. يجب علي أن أتركك الآن، لابد أنك منهك وتحتاج للنوم، أراك غدًا.

- هاها محاولة جيدة، اقعد هنا، ألا يكفيني ما نمته، حكم عليك اليوم أن تتذوق من مأكولاتي الشهية.

وجلست، وشرع يطبخ، ثم سألني:

- طمأنني.. كيف حال جدك، عم رمزي، تويا وشرودنجر.

- تويا مع أبيها الآن، من المفترض أن يخرج في نفس موعدك، عم رمزي وجدي ذهبا إلى السبات أمس ورافقتهما، هما بخير، وشرودنجر بالتأكيد نائم فوق أحد المقاعد بحديقة الفيلا، لقد أصبح هو وجدي أصدقاء جدًا.. آه، صحيح، لم يتسن لي وقت لأشكرك على ما فعلته مع جدي أثناء سباتي، ذلك شيء لن أنساه.

- اسمع لا تقول مثل هذا الكلام، أخبرتك أن جدك قريب على قلبي، أنتم أهلي في تلك المنطقة التي ليس لي أهل فيها، والناس هذه الأيام لا يألفون بعضهم سريعًا، مواقع التواصل أصبحت لهم بديلاً لكل ما هو حقيقي.

- وأين أهلك؟

- موجودون، عادي، يعيشون ببيت في منتصف صخب القاهرة، كأي أسرة، ولكني واختراعاتي وتلك الكراكيب لم يعد لنا مكان هناك، في ظل الأزمة الاقتصادية انتقلنا من أسرة شبه غنية إلى أسرة متوسطة، أي أن الأمر لم يؤثر فينا كثيرًا مثلما أثر في أغلب الناس، ولكن نفسية البيت لم تكن بحالة جيدة، لن يتحملوني بقطي الكسول ومتعلقاتي المتناثرة، التي لم تعد تكفي غرفتي بأي حال، كل شيء يشير لي أن أذهب، وكانت الفرصة عندما رأيت إعلانات لبيع هذه الشقة بمبلغ بسيط، هذه المنطقة كان يعيش فيها عمالاً لشركات لم تعد تنتج، ربما أنت تعلم هذه القصة، أغلب هؤلاء العمال كان لهم بيوتهم الأصلية في مناطق أخرى، هاجروا إليها وقاموا بعرض تلك البيوت النائية للبيع بمبالغ رخيصة، خاصة أيام الأزمة الاقتصادية، عندما لم يكن هناك أموال ولا مشترين، وكل أسرة تحتاج إلى أقل قدر من الدعم، كانت فرصة، أنا شاب عندي بعض الأموال المدخرة، ليس لدي مشكلة أن أنتقل وأشيائي إلى منطقة بعيدة

غير مأهولة نسبيًا، ذلك أهدى وأكثر راحة لأعمل متفرغًا على هذا المشروع، وها أنا هنا.

- نحن أيضًا بعنا شقة جدي أثناء الأزمة وبمبلغ رخيص، لم يكن انتاج النحل في تلك الفترة العصيبة يغطي مصاريفنا البسيطة، ولكن الأمر الآن مستتب، كما لازال عندي شقة والدي بالقاهرة لم أبعها، وبالطبع لا أعيش فيها لمراعاة جدي، لو كنت أعرفك قبل أن تشتري هذه لأعطيتها لك، ولو بإيجار بسيط.. ألم تصلح ذلك الروبوت بعد؟

- سيّد.. كنت مشغولاً بأمور أخرى، ربما أفعل هذا الشهر.

- وأين تلك الأعمدة الحديدية الغريبة التي كانت هنا؟

- وضعتها فوق السطح.

واعتقدت أنه فعل ذلك ليرتب الغرفة، فالمنظر بدونها أفضل بالفعل، كانت طويلة تشغل المكان، وبها أسلاك وأجهزة ومصابيح، أومأت برأسي وقلت له.

- هكذا أفضل.

وقال:

- اسمع، سوف أخبرك بشيء هام، في المرة السابقة، ارتكبت خطئًا ما، كنت أجرب وصفة جديدة حمّلتها من أحد مواقع الطهي اللعينة، ولم يكن اختيار موفق، ولكن هذه المرة فعلت كل شيء كما يجب، المقادير مضبوطة بالميزان، إنها أحد وجباتي المفضلة، ولكن تجربة السبات اللعينة تلك، إنه شهر كامل، وأنا ظننت أنني نمت يومًا أو اثنين، نسيت أن تلك العبوات اللعينة منتهية الصلاحية، واستخدمتها، ليس ذنبي، يبدو أنك سيء الحظ، هذا كل شيء.

- لم أفهم، وهذا يعني؟؟

- يعني الطعام فاسد، اطلب لنا شيئًا على ذوقك.

وخبطت كفي على وجهي: يا الله، مرة أخرى!.

طلبت ما أكلناه مسبقًا، ثم فكّرت في أن أحكي له ما يشغل بالي، لم أفقد الأمل، شيء في أعماقي ألح أن يطمئن على تلك الحسناء، صورتها تلوح أمام أبصاري كل ليلة، تنبت شغف يجرني نحوها، فضول، ودافع مجهول، يحثّني دائمًا على البحث عنها لآخر فرصة ممكنة:

- ماريو، سوف أحكي لك قصة عجيبة، ربما تستطيع مساعدتي ...

وقصصت عليه كل شيء، بالتفصيل، وحتى محاولات بحثي عنها مع تويا، وكان ماريو في أشد انتباهه، حتى انتهيت، وأردف مستوضحًا:

- ولم تجدها حتّى الآن.

- نعم.

فقام بغتة، تناول جهاز لاب توب قديم، بنظام ويندوز، فتحه قائلًا:

- دعنا نجرب.. اختراق موقع وزارة السبات لمجرد استخراج هذه البيانات أمر سهل، تعلمت بعض تلك الأمور، البرمجة ولغة الحاسوب جزء من ذلك المشروع الذي كنت أعمل عليه.

- وكيف ستخترق موقع الوزارة من خلال جهاز قديم؟؟

- البرمجة القديمة جزء من دراستي، وهي عندي أسهل وأبسط في التعامل، لن يحتاج طلبك هذا إلى تكنولوجيا معقدة أبدًا، هذه أمور فنية يطول شرحها، ولكن الآن أخبرني سريعًا رقم الكبسولة.

ملّيته، كتبه على خانة صغيرة بمنتصف الشاشة، ثم خبط بإصبعه على زر الدخول، فبدأ تحميل لم يدم ثوان، ولكن بدا لي وكأنه ساعات، لا

أعرف لماذا يأتيني كل هذا الشغف تجاهها، ولكن تلك اللحظة اضطرب قلبي كثيرًا، قال ماريو:

- انظر.. هؤلاء هم زملائك في الكبسولة.. (عاصم محمود) وأعتقد أن اسمها ليس عاصم، (ياسين يزيد يحيى) وهذا الاسم المضحك لك، (رغد يسري طلعت) إذًا لابد أن رغد هي جميلتك النائمة.

- نعم، هذه هي صورتها، أنت أعظم صديق عرفته، أشكرك جدًا.

وشرعت أتأملها، نفس الملامح، ولكن هذه المرة مع ابتسامة مشرقة، وأعين فاتنة، برّاقة كالنجوم، رغد إذًا، هذا هو اسمها، وأضاف ماريو في حماس:

- كما توقعت، بما أن هذه الفتاة معك في الصرح، بل وفي نفس كبسولتك، فغالبا هي تعيش أو كانت تعيش في نفس منطقتنا السكنية، وبالفعل والدها كان أحد العاملين البسطاء في الشركة القديمة، وكانوا يعيشون في نفس هذا المجمع السكني، ولكنهم باعوا شقتهم أثناء الأزمة، أما أين هم الآن، فتلك البيانات غير متوفرة على هذا الموقع، ولكن يمكننا أن نتتبع موقعها من خلال صفحتها الشخصية.

- الأهم.. هل حدث لها مكروه؟

- لا يوجد أي أخبار عن حالة وفاة، إلا إذا ماتت ولم يسجل النظام ذلك، ولكن هذا أمر مستبعد، سوف نعرف كل شيء الآن.

ومضت دقائق من التوتر، حتى عثر ماريو على صفحتها الشخصية.

- آه.. أخبار سيئة، تلك الصفحة لم يفتحها أحد منذ عدة أشهر، ولكنها صفحة غير نشطة، يبدو أن هذه الفتاة ليست متيمة بمواقع التواصل، وهذا غريب، ولكن لدينا بعض البيانات هنا، درست الإعلام، أتمت 27 سنة، تحب الرسم، وآخر مكان عملت فيه هو مقدمة طلبات في مقهى..

- تحبني!! هل قالت ذلك.

- كيف لا تلاحظ، كانت ستجن عليك وأنت في السجن، ثم نظراتها لك وشغفها بكل ما تقول.

- لا أظن، كل هذا طبيعي، نحن أصدقاء، ثم أنها أصغر مني بعشر سنوات.

- وما المشكلة في ذلك؟

ضحكت ساخرًا، وأجبته:

- أنا قابلتها مرتين فقط قبل ذلك اليوم، مرة عندنا في الدكان، وعاملتها بجفاء شديد، والمرة الثانية عندهم في الاستراحة، عندما ضربت أبيها وحطمت الاستراحة فوق رأسهم.

- وهذه أسباب كافية، بعض الفتيات يحببن الرجل الغليظ، والبعض الآخر يحببن الرجل القوي، وهذا ما رأته فيك، هي صغيرة، وأنت جارهم الطبيب الوسيم الشجاع، وصدقني، أحيانا الحب لا يحتاج أكثر من مجرد نظرة عابرة.

- ربما تكون محقًا، ولكن من ناحيتي، فنظرتي العابرة تجاه تويا لم تؤثر في عاطفتي بأي شكل من الأشكال.

- ولكن هناك نظرة أخرى أثّرت، أليس كذلك؟

شعرت بما كان يلمّح إليه، فأربكني كلامه، ولم أكد أجيبه حتى أردف:

- وصلنا.

نزلنا من السيارة الصغيرة أمام المقهى المقصود، لهذا الاسم فروع عدة، ولكنها تعمل في هذا الفرع خصيصًا، دخلنا، جلسنا على أحد الطاولات، طلبت فنجان قهوة، وطلب شاي، ولمّا جاءت النادلة قلت لها:

- لو سمحتِ، هلا آخذ من وقتك دقيقة.

- طبعًا.

- هناك بنت اسمها رغد، كانت تعمل معكم في هذا المقهى، هل تعرفين عنها أي شيء؟

- ولِمَ كانت.. هي لازالت تعمل في المقهى.

تسارعت ضربات قلبي، وسألتها ووجهي لا يخفي سعادتي:

- وهل هي هنا الآن؟؟

- لا.. هذه فترة سباتها، إذا أردتها، مرّ علينا الشهر القادم ستجدها.

يالغبائي!! بالطبع في فترة السبات، إنها في نفس مجموعة جدي، كيف يفوتني هذا الأمر، ليت ماريو كان معي منذ وقت طويل، أبهتتني الصدمة، وبقيت مشدوهًا لبضع ثوان كالأبله، لا أجيب، والنادلة منتظرة أمامنا، حتّى صرفها ماريو شاكرًا، وأردف:

- أرأيت، هي بخير، لا داعي لشكوكك، نظام السبات آمن، ولو كان يشكل خطرًا، لأصاب أي شخص فينا أو في دائرة معارفنا.

وأجبته في تشاؤم:

- قريبًا سيفعل، لازال هناك الكثير لأعرفه، مسح البيانات لم يكن أوهام، وحظر الصحافة إلا من كتابة ما يريدون، ذلك الخلل الذي حدث، لو كان في الكبسولة فلِم يدخلونني بعدها؟ ولو كان الخلل عندها، فلِم يدخلونها في السبات مرة أخرى؟ هناك لغز غريب، لابد أن أقابل تلك الفتاة يومًا ما، وأحصل على بعض الإجابات لهذه الأسئلة الملحة في رأسي.

- متأكد أنك تريد مقابلتها من أجل بعض الإجابات، وليس لسبب آخر.

- ماذا تقصد!

- لا شيء، هيا لنذهب إلى البيت، كم أفتقد شرودنجر.

الفصـــل الخامـــس

1

صبي صغير لم يجاوز عمره الثمانية أعوام، يركض في فناء مدرسة خلف كرة تدحرجت من بين يديه، وإذا بظل أسود يسقط على وجهه، فتى سمين عابس الوجه، واحد من هؤلاء العمالقة أصحاب الاثني عشر عامًا، يركل الصغير بقدمه ركلة أسقطته في بركة الطين، ثم جاء عملاقين آخرين عن يمينه وعن يساره، فهرب أصحاب الصغير ناجين بحياتهم، ليصبح هو وحيدًا مكتوف الأيدي بين قبضة المتنمرين الثلاثة، جعلوا يقاذفونه كالكرة بين بعضهم وهم يتضاحكون فيما بينهم، والطفل الصغير مذعورًا يكاد يقتله الرعب، وإذا بزجاجة ماء بارد تنسكب فوق رؤوسهم فتصيب الهدف، لينظر الأربعة بالأعلى فيجدوا فتاة صغيرة تصرخ في وجه المتنمرين الثلاثة "اتركوه وانصرفوا يا أغبياء" فيترك الثلاثة هذا الفتى، ويتجهوا ناحية السلم ليلحقوا بتلك الفتاة التي أجرمت في حقهم، تهرب الفتاة بدورها، وكذلك الصغير يأخذ كرته ويولي مدبرًا، ولا يعود إلى هذا المكان من فناء المدرسة مرة أخرى.

استيقظت من النوم فزعًا بعد أن راودني هذا الحلم العجيب، يلقيه لي عقلي الباطن من صندوق الذكريات الصدئ، هل أخبرتكم ما هي أكبر مخاوفي طوال حياتي، إنه العقل الباطن!!

عندما يستعصي عليّ حل مسألة فأتوقف عن التفكير بها، ثم فجأة أجد الحل يلقى إلى وعيي دون سابق إنذار، أو عندما تأتيني فكرة معقدة في جزء من الثانية.. وأساسها كان خيط بسيط خطر يومًا إلى ذهني، وكأنه أخذها دون أن يخبرني، وذهب بها إلى مكتبه وجعل يرسم ويخطط، ثم يخرج بها إلى وعيي مرة أخرى ليوهمني أنها فكرتي.

شعور أن هناك مفكرًا آخر غيري داخل عقلي شعور يرعبني، إنه رقيب عليّ بداخلي، ربما أتحكم في حركات أطرافي، ولكن من يتحكم في غرائزي، من يملي عليّ قراراتي، ومن يتحكم في دقات قلبي، هل يستطيع أن يوقفها بكلمة منه، هل الموت قراره عندما يعلن الاستسلام؟! أأنا القائد أم أنني مجرد سائق، أم أنها مركب بقائدين مصيرها الغرق؟! أكره الأسرار وأنا نفسي سر أعظم.

يقول فرويد في كتابه تفسير الأحلام، إن الأحلام كلها ليست إلا رسائل من العقل الباطن، محاولات للتواصل بين عالم الوعي وعالم اللاوعي، الذي يرسل إلينا تحذيراته في صور ورموز وتوقعات، وفي ذلك اليوم، عندما سألني ماريو هل أنا متأكد أنني أريد مقابلة رغد من أجل بعض الإجابات، وليس لسبب آخر..

أثار سؤاله تفكيري، شغفي لمقابلة تلك الفتاة ليس عاديًا، أعترف بذلك، ولكن هل يمكن أن أحبها من نظرة واحدة!! هل هذا معقول، وعقلي اللاواعي كان عنده الإجابة لكل هذا الشغف، إنها تلك الذكرى، رغد هي الفتاة التي أنقذتني صغيرًا من أيدي المتنمرين، موقف لم أتذكره في حياتي أبدًا، والآن يقفز إلى أحلامي بعد عقدين كاملين، كيف يميز هذا اللاوعي ملامح شخص مر عليه عشرون عامًا، وقد تغير شكله تمامًا،

إنها قدرة خارقة يمتلكها كل إنسان، أعترفت لكم أن ذاكرتي قوية، ولكن ليس لهذا الحد، ربما أكون موهومًا، ربما ليست هي أصلًا، ولكن لم لا؟! يقول ماريو إنها كانت تعيش في المنطقة، ومدرستي الابتدائية كانت هنا، وهي أصغر مني ببضع أعوام، محتمل جدًا أن تكون هي الرفيقة الطيبة، وسواء كانت هي أم لا، فالأكيد أن هناك حنين غريب يجذبني نحو تلك الفتاة، حنين مثل حنين جدي إلى ماضيه، كم أشبهه!

2

في جزعة من الليل، وبينما أنتظر أن يزور النوم فراشي، أراقب عبر النافذة الزجاجية أضواء النجوم تتصل مع مصابيح نوافذ البيوت، هناك في المنطقة السكنية التي يعيش فيها ماريو، وإذا فجأة، وفوق أحد الأبراج، يتجلى ضوء أبيض ساطع، يبرق بشدة لثانية أو اثنين ثم ينطفئ، ومع انطفائه تنقطع الكهرباء عن المنطقة كاملة، حتى عن الفيلا، وينفرط الدجى في كل مكان، إلا من قطرات النجوم المزهرة، ثم يأتيني اتصال هاتفي:

- ياسين، أنجدني، أحتاجك حالاً.

* * *

نهضت من مكاني في فزع بالغ، نزلت وفي طريقي وجدت الاستراحة مفتوحة، فناديت تويا التي كادٍ يغلبها النوم بالداخل:

- تويا، أعتقد أن ماريو في خطر، اتبعيني.. حالاً.

وانطلقنا مسرعين نحو بيته، وكان المصعد معطل لانقطاع الكهرباء، فأخذنا الدرج حتى باب بيته في الطابق الأخير، ثم خبطت ليخبرني نظام الأمان أنه لا أحد بالداخل، جاءني إحباط وقلق شديد، فكرتٌ أن أكسر الباب، ولكن خطر إلي أنه فوق السطح، صوت الهواء في اتصاله، وذلك الضوء الغريب قبل انقطاع الكهرباء، قلت لها بأنفاس متهدجة من شدة

الإنهاك:

- إنه فوق سطح المبنى.

وأخذنا الدرج بلا تريث، وبالأعلى وجدناه ملقى على الأرض، إلى جوار أسلاك متفحمة، وعلى كفّيه وطول ذراعيه حرق من الدرجة الثانية، يبدو أنه صعق كهربيًا، شهقت فزعًا وصرخت تويا، لحسن الحظ أنه لازال يتشبث بوصال وعيه، وإلا تعذر علينا حمله، ساعدناه على النزول، وعلى إضاءة الطوارئ الخافتة أجريت له بعض الإسعافات الأولية، أخبرت تويا بأسامي الأدوية الضرورية لتطلبها، دقائق قليلة وأعادت الكهرباء الحياة إلى المنطقة، سألت تويا بينما كنت ألف ذراعيه بنسيج مضاد للحروق:

- هل سيكون بخير؟

- هو بخير، لا داعي للقلق، (ووجهت الكلام إليه) ولكن ما سبب كل هذا، هل كنت تحاول الانتحار، أم كنت تطهو شيئًا جديدًا؟

ولهذه الجملة ضحك ماريو حتى أخذ يسعل من شدة الإعياء، ضحكاته زرعت في قلوبنا السكينة والاطمئنان على حاله، شرب بعض الماء، ثم أخذ يشرح لنا ما كان يفعله:

- هل تذكر ذلك المشروع الذي حدثتك عنه، وتلك الأعمدة الحديدية التي رأيتها عندي منذ فترة؟

- نعم، واعتقد أنني رأيتها اليوم بالأعلى، مثبتة بالطول في صورة تشبه أبراج الإرسال.

- بالضبط، ولكن ليست فقط أجهزة إرسال، إنها شيء يشبه آلة زمن.

هذا ما قاله، نظرنا أنا وتويا لبعضنا في دهشة بالغة، ولكنه أردف:

- لا تفرطوا في الخيال، ليست آلة زمن حرفيًا، اسمعوا، إن الإلكترونات داخل الذرة تسلك سلوكًا غير مألوف، يصعب تفسيره، احتار العديد من

العلماء القدامى في هذا الأمر، مثل شرودنجر وهايزنبرج وأينشتاين، بعض العلماء يعتقدون أنها تخترق أبعاد الزمن، وهكذا يقال إن الأشياء إذا وصلت لسرعة الضوء يمكنها أن توقف الزمن أو تتلاعب به، ولكن من الصعب أن يصل جسم لهذه السرعة الفائقة، أو أن يسلك هذا السلوك، إلا إذا كانت كتلته تساوي تقريبًا صفر، وذلك شبه مستحيل -عمومًا- لا أريد أن أزعجكم بنظريات علمية بحتة، ولست في حالة من الحماس تسمح لي بهذا الآن، كل ما في الأمر أنني أفكر في خلق موجات تخترق تلك الأبعاد، من خلال العبث ببعض الإلكترونات يمكنني أن أنشئ موجات تتحرك بعكس اتجاه الوقت، موجات تمكننا من أن نرسل رسائل بطريقة مباشرة إلى الماضي، ولكي أوفر العديد من التعقيدات على نفسي، كل ما أحتاجه هو بريدين إلكترونيين قديمين، أي لهم وجود في الزمن الذي أحتاج أن أرسل له هذه المعلومات، أكتب الرسالة من أحدهم، ثم أرسلها بتاريخ قديم إلى الآخر، ذلك دفعني أن أتعلم كثيرا من لغة البرمجة ولغة الحاسوب، خاصة القديم منها، أعمل على هذه الفكرة منذ وقت طويل، ولكن لم أنجزها حتى الآن.

فغر فاه تويا، وعقّبت: أنت عبقري!!

ولكن إن أردتم رأيي، فهذا ما أدليت به:

- طريقة تفكير مثيرة للاهتمام، عبقري فعلًا، ولكني أرى أن تنفيذ شيء مثل هذا أمر شبه مستحيل!

- ولم؟

سألَ الاثنان في وقت واحد، وكان علي أن أجيب، محطمًا آمال ماريو العظيمة، والتي كادت أن تميته بجرعة قاتلة من الكهرباء:

- اسمع يا صديقي، إذا كانت هذه الفكرة ناجحة، لكنّا وجدنا رسائل بعثت للماضي من هذا الزمان، أو رسائل بعثت إلينا من المستقبل، ولكن نحن لم نجد شيئًا مثل ذلك أبدًا، وهذا يعني أنها لم تحدث.

- وماذا لو حدث ولم نعلم؟

سألت تويا، وأجبتها:

- أمر ضعيف الاحتمال، نحن نتحدث عن فكرة ثورية حقًا، وعلى مدار التاريخ الطويل، ألن نعرف أبدًا! أخبرني مثلًا يا ماريو، ما هي الرسالة التي كنت تحاول إرسالها للماضي؟

- كنت أرسل مذكراتي لنفسي.

- والآن أنظر في صندوق رسائلك، هل جاءتك أبدًا تلك المذكرات، من المفترض أنك تنوي إجراء محاولات عدة، ولو نجحت واحدة منهم على الأقل، لوصلتك هذه المذكرات أو غيرها.

أعربت ملامح ماريو عن إحباط مرفق بشيء من الاقتناع، ولكنه فكّر قليلًا، ثم قال:

- هناك فرضيات عدة في مسألة اللعب بالأزمنة يطرحها العلماء والأدباء، إحداها يقول إن أي تغيير في أحداث الماضي يبقى في الماضي، ويشكل بدوره تسلسل أحداث مختلف، في مسار زمني خاص، أي أنه ربما تصل هذه الرسائل، ولكن بدورها تشكل مسارًا زمنيًا آخر، والتغيير الذي أحدثته لا يظهر في هذا المسار الزمني.

تويا لا تفهم أي شيء مما قيل، أما أنا، فلم أقتنع به، وذلك ما عبّرت عنه بصراحة:

- لست مقتنعًا أبدًا بمثل تلك الفرضيات، الكون ليس بهذه العبثية يا

صديقي، ولكن لنفترض أنها صحيحة، فأنت في تلك الحالة غير مستفيد بأي شكل من الأشكال، ناهيك عن أنك لن تعرف أبدًا إن تم إرسالها أم لا، فلم تقتل نفسك أو تجهد وقتك وأفكارك لتحدث تغييرًا في مسار زمني لن يعود عليك بأي فائدة ممكنة، وإن كان لا جدوى من تلك الفكرة، فأحرى بك أن تستغل وقتك وعبقريتك بطريقة مختلفة.

لم يجد ماريو شيئًا آخر يقوله، وكأنه يقول في نفسه "كيف لم أفكر بتلك الطريقة؟!" أعترف أنه عبقري، ولكن العباقرة أحيانًا تفوتهم صغائر الأمور، وأردفت محطمًا لحظات الصمت الضئيلة:

– اسمع يا ماريو، أنت لم تفشل أبدا، تلك الفكرة جاءتك منذ سنوات طويلة، فانظر وأنت تعمل عليها كم جنيت من المنافع، وكم غيرت في شخصيتك وحياتك وطريقة تفكيرك، كل خطوة نخطيها بجدية نحو النجاح، هي نجاح في حد ذاتها، تعلمت البرمجة، فساعدتني في العثور على رغد، تعلمت الكثير من العلوم، انظر كيف غيرك هذا وجعلك شخصًا مثقفًا في المقام الأول، دفعك هذا لتعيش هنا فتتعرف علينا أنا وتويا، ولولا العمل على تلك الفكرة، لكنت اليوم مجرد شخص عادي يجهل الكثير من الأمور، والتي حتمًا أفادتك، وسوف تفيدك أكثر في المستقبل.

لا أعلم من أين جاءني هذا الكلام، وإن كنت مقنعًا أم لا، ولكن كلماتي هدّأت كثيرًا من إحباطه، وظهر ذلك بقوة على ملامحه، كان يبتسم ويومئ برأسه، ويقول:

– معك حق في كل كلمة يا صديقي!!.

3

مضت أيام لم أفتح الدكان فيها، قضيتها إلى جوار ماريو أراعيه، لأن كفيه وأصابعه كانتا مغطيان تمامًا بالضمادات، فلم يقدر على التقاط أي شيء، والأمر الإيجابي في هذا أنه لن يستطيع الطبخ، كان يضحكني كثيرًا، خاصة عندما أجده يعجز عن استخدام أصابعه فيستخدم فمه مباشرة في تناول الأشياء، أو التقاط الطعام، أو حتّى تغيير صفحات الكتاب الذي يقرأه، ومن عاداته أن يقرأ ساعة على الأقل في صباح كل يوم وفي المساء، أن تُولد محبًا للقراءة؛ فذلك أسمى درجات الحظ، وأما أن تُكسب نفسك تلك العادة، فذلك أسمى درجات التطور، أصبحنا في تلك الفترة أصدقاء أكثر مما سبق، وظل يحدثني كثيرًا عن قراءاته، فهو لا يقرأ في مجال محدد، أو لأديب محدد، بل يعتبر الأدب كله مكملاً لبعضه، بوابة واسعة على الأماكن والأزمنة، الأدب الروسي بطولة دوستويفسكي وتولستوي وتشيخوف، والإنجليزي بطولة جورج أورويل وأجاثا كريستي وتشارلز ديكنز، الفرنسي بطولة هوجو وفلوبير، الأمريكي بطولة دان براون وستيفن كينج وهيمنجواي، الياباني بطولة موراكامي، واللاتيني بطولة إيزابيل الليندي وماركيز، والعربي بطولة نجيب محفوظ، والأدب التشيكي بطولة كافكا وكونديرا، واليوناني بطولة كازنتزاكيس ومن قبله هوميروس ودانتي، وهكذا وهكذا.. كان يتمنى أن يقرأ عملاً أو اثنين على

الأقل لكل أديب، ولكن ذلك لن يكفيه عمره كله، وقال إنه لا يفرّق أبدًا بين أدب حديث وأدب قديم، وأدب بسيط وأدب معقد، مهما كان!! يخطئ المثقفون في أنهم ينتقدون ويهاجمون بعض أنواع الأدب الضعيف، ولكن في رأيه أن كل هذه الأعمال لا غنى عنها، إنها بداية طريق لبعض القراء، لأن أغلب الكتب تقدم عصارة فكر، لن يستوعبها كاملة من دخل إلى هذا العالم فجأة، وهنا تأتي أهمية الكتب التي لا تقدم فكرًا معقدًا، ولكن لا تقتصر على ذلك، فأحيانا تكون بمثابة خيط فاصل بين عمل أدبي وآخر، وأحيانا لا تحتمل حياة الفرد إلا قراءة الأدب البسيط، الذي يشكل ملاذًا من تعقيدات الدنيا.

الكتب مثل الحياة؛ فكما أن هناك أشكال شتى من الحياة على وجه الأرض، وانقراض أحد تلك الأنواع يخل بالنظام البيئي، ونحن لا نعلم إذا انقرض أحد الكائنات ما الذي يمكن أن يحل محله، إن الإعجاز في الحياة هو تعدد أشكالها، فكذلك كل كتاب أيضًا هو كائن حي، بعض الكائنات تبدو بسيطة، ولكنها رغم ذلك بديعة الجمال، وقد عاشت على الأرض قبل كائنات أكثر تعقيدًا، وستبقى فيما بعدها، بعض الكتب -وبرغم بساطتها- تقدم تجربة عظيمة، فهي أفكار قيّمة في أبسط صورة ممكنة، وهذا هو النوع الأفضل، وعلى أي حال، ومهما اختلفت الآراء، فإن القراءة مُغامرة تستحق أن تُخاض.

شجّعني كلامه كثيرًا، فقرأت أكثر من كتاب في أقل من شهر، واتخذتها عادة لن أغادرها، حتّى أنني ذهبت إلى قاعة السبات بكتاب في يدي، ولكن في الحقيقة لم أقرأ كلمة، بل كنت أراقب الأوجه بلا غفول، باحثًا عنها بين الملامح، مثل الباحث عن زهرة الخلود بين صخور جبل عظيم،

ولكن أبدًا لم أجدها، ذهبت إلى القاعة مبكرًا، وجلست هناك لساعات، ولم تظهر.. حتى دخلت السبات، وتركتهم يسرقون من عمري شهرًا جديدًا، مرتديًا تلك العباءة البلهاء.

4

نفس الرائحة، نفس الشعور الغريب، صوت الصفير الخافت، وجسدي الثقيل الخامد، الوهج الأحمر، التاريخ والساعة، شهر يمر في بضع ساعات، ثم صوت الكبسولة الأنثوي "صباح الخير" لينفجر ينبوع التساؤلات في رأسي، ترى هل خير فعلًا؟ ماذا حدث أثناء هذا الشهر اللعين، هل أخبار تدعو للتفاؤل؟ أم..؟؟

في طريقي للبيت، وعبر زجاج السيارة، جعلت أتصفّح وجوه الناس، رغم انتهاء الأزمة الاقتصادية، إلا أن تأثيرها النفسي والاجتماعي لازال ينطبع كأمراض مزمنة في نفوسهم، عندما يكون الفقر والقهر رفيقان، تسير في الشوارع فترى رجالاً بالغين يُحدثون أنفسهم، يحرّكون كفوفهم وأكتافهم وكأنّهم في حوار عميق، أتخيّلهم يجهزون حوارًا لطلب علاوة من مديرهم المتسلّط، أو تأجيل الإيجار من المستأجر الجشع، أو ربما أب لم يواكب عصره فيمرّن نفسه على حوار مع ابنه الذي لم يعد يعترف بعقليته الرجعية، أو رجال عقلاء يحاولون الهرب من واقعهم الأليم بالخيال، يتخيلون أنفسهم رؤساء أو وزراء فيأمرون وينهون، وأكثر ما يقلقني، أنني أتوسم نفس المرض في أعينهم، وكأنها أعراض وباء انتشر أثناء غيابي، في نهاية طريقي مررت على الاستراحة، حيث كان عم عز، ألقيت عليه سلامًا، وبدا على وجهه تعب شديد، قال إنه مريض، طلب مني أن أكشف

عليه، ووعدته بذلك، ثم إلى الفيلا، حيث وجدت الدكان مقفولًا، ليست عادة جدي، وأين ماريو!!

الفيلا مظلمة، وعثرت على جدي نائمًا في فراشه، ووجهه شاحب جدًا.

- جدي!

استيقظ في فزع، ملامح يمتزج فيها الفرح والشوق والإعياء.

- ياسين، حمدًا لله على سلامتك يا بني.

- كيف حالك، وأين ماريو؟

سألت باهتمام، وأجاب بحزن:

- متعب بعض الشيء.

- أنت أم هو؟؟

- كلانا، ولكن لا تقلق علي سأكون بخير، كالعادة.

منذ ذلك اليوم، وقد فاقت الشكوك بقلبي كل حدودها تجاه ذلك النظام اللعين، عندما وجدت كل من حولي مرضى، أين الخلل!!

أجريت فحوصات لكل من أعرفهم، بلا استثناء، ولكنها لم تعرب عن شيء أبدًا، ماريو وتويا وجدي وعم عز وعم رمزي، حتى أنا، وكل القراءات خرجت شبه منضبطة، كل شيء تقريبًا على ما يرام، ولكن أهذا ما يبدو على وجوههم؟

المهندس الخبير يعرف العطل بمجرد النظر، وأنا طبيب، أعلم عندما أنظر في عين أحدهم أن به خطب ما، ولو لم يشتكِ!

كلما أسير في الشوارع، أتوسّم المعاناة في أعين الناس، حتى الأطفال لم يعودوا بنفس حيويتهم، ملأ قلبي ارتياب أن تلك الكبسولات بها سر غريب، وكأنها تزيد الناس بؤسًا وشيخوخة، حتّى بدأ مَن حولي ينعتوني بالمهووس.

ولكن.. هل تعرفون قصة كلير باترسون؟؟ دعوني أحكيها لكم، في أواسط القرن العشرين، كان هناك عالم كيمياء جيولوجي اسمه كلير كاميرون باترسون، ذلك الرجل عمل على مشروع غير مسبق، وهو تحديد العمر الحقيقي للأرض، وكان ذلك مجرد بداية، فقد قادته الصدفة أثناء بحثه إلى ما هو أعظم، وأشد خطرًا على البشرية، في البداية لم تكن استنتاجاته دقيقة، واكتشف أن سبب ذلك هو انتشار عنصر الرصاص في معمله، فعقّم المعمل، أكثر من مرة، ولكن دائمًا كانت هناك نسبة من الرصاص، والذي هو عنصر شديد السمية على الإنسان، عانى باترسون بالفعل من وساوس في التعقيم، وساوس كادت تصيبه بالجنون، لأنه كان يتخيل كل شيء حوله ملوث بالرصاص، وذلك الانتشار السام قد حدث بسبب السياسات الصناعية حول العالم، باترسون كان يعلم أن كل من يراهم في خطر محدق من تهديد غير مرئي، فجعل مهمته هي لفت انتباه الشعوب إلى الآثار الضارة للرصاص في البيئة، وكرس حياته المهنية لمحاربة صناعة البترول والكيماويات، وذلك وضعه في صدام مع كبار رجال الأعمال، المتحكمين في كل شيء، فانقطع عن أبحاثه الدعم، وواجه مشاكل سياسية عظيمة، ولكنه أبدًا لم ييأس، ظل ينادي ويندد، ووقف إلى جواره عدد لا بأس به من العلماء، إلى أن وصل صوته، وتم دعمه سياسيًا، انتصر باترسون في النهاية على الحرب التي أجريت عليه، فطبقت قوانين على الصناعات للحفاظ على البيئة، بفضل باترسون قلّت نسبة الرصاص من حولنا بنسبة تجاوزت الثمانين بالمئة، ولولاه لواجهت البشرية هذا الشر بعد فوات الأوان.

هكذا كنت أرى المرض في أعين الناس، مثلما رأى باترسون بقايا

الرصاص، وكان محقًا، تأثرت بتلك القصة، وليتكم تتخيلون إلى ماذا قادتني وساوسي، كم كنت أحمقًا، ظننت نفسي كلير باترسون، وقادني ذلك إلى هذا الوضع المزر الذي أنا فيه، في بداية كتابي أخبرتكم أنني لا أمتلك إلا أسبوعًا لكتابة تلك القصة بأدق التفاصيل، والآن أكتب لكم أنّه قد مرّ عليّ أكثر من نصف هذا الوقت.. مهدد، معزول في الفيلا، وحيد تمامًا، كتبت عددًا لا بأس به من الصفحات، لا أعلم إن كانت الأحداث قد جاوزت نصفها، مثل الوقت الذي أملكه، لقد ضيعت وقتًا طويلًا في كتابة التفاصيل، ولكن لو تعلم عزيزي القارئ المجهول كم هي هامة تلك التفاصيل، فإما أن أكتب قصتي بيدي وبدقة، أو يكتبونها بطريقتهم! والآن.. لنكمل ما بدأناه.

5

ذهبت وحيدًا هذه المرة، حتى ألقاها، مرتبكًا أكثر من المرة الأولى، التي لم أجدها فيها على أي حال، كم يزيد الانتظار من الشوق والتوتر، وقد انتظرت هذا اللقاء لأشهر، ليت ماريو كان معي، ولكنها فترة سباته، وكانت تويا مريضة، فذهبت وحيدًا، جلست على نفس الطاولة التي جلسنا عليها أنا وماريو في المرة السابقة، ولم أكد أرتب الكلام الذي نويت قوله، حتى سمعت صوت رفيع، يسأل:

- أؤمر يا فندم!

وكانت هي، في ابتسامة ينبض لها القلب، وتنبسط لها الأسارير، شعر طويل، ثقيل وناعم، مع بعض التجاعيد التي زادته جمالًا، بشرة ملساء، ليست ناصعة البياض، بل بها سمار يزيدها روعة وبهاءً، أعين بنّية أخّاذة، وترتدي قميصًا أبيضَ ضيقًا، ليس به أي نقوش أو رسومات، ولا يحتاج إلى ذلك، يكفيه جمالًا سعيه على نهديها، وعلى وسطها منديل أزرق، مرسوم عليه شعار المقهى:

- حضرتك تؤمر بطلب معين؟

سألَتْ.. فانتبهتُ، وقلتُ بصوت متحشرج:

- محتاج أتكلم -أحم- محتاجٍ أتكلم مع حضرتك ثواني.

- معي أنا؟!

- الموضوع مهم، صدقيني لن آخذ من وقتك كثيرًا.

ونظرت حولها في ارتباك، ثم جلست، وكان علي أن أتحدث، ولكن عقلي فارغًا من كل شيء، يتأملها، والكلمات عالقة في حلقي، لا تخرج، ولا أنطق.. هزّت رأسها، ورفعت كفّيها، وكأنها تسأل باستغراب ماذا تريد، وقُلت:

- هل أنتِ بخير؟

- نعم!!!

- أقصد، هل تعانين من أي أمراض مزمنة؟

- ماذا تقصد؟؟

- آسف، يجب أن أعرفك بنفسي في البداية، لم أرتب الكلام جيدًا، اعذريني، سوف أشرح كل شيء.

- أرجو أن يتم ذلك سريعًا، لدي ضغط عمل.

يا الله، لماذا قالت ذلك، هل كان يستدعي الموقف المزيد من التوتر، لست أنا هذا المتحدث الماهر الذي ينطلق لسانه فصيحًا ظريفًا عندما تعجبه إحداهن.. أخذت نفسًا عميقًا، رتبت الكلام في رأسي، وأطلقته في قول واحد كإنسان آلي بمعالج بطيء:

- اسمي ياسين العسال، طبيب بشري، وأجري أبحاثًا على نظام السبات، وبالتحديد على ملاءمته الطبية للبشر بمختلف ظروفهم، وهل له أي أعراض جانبية، وبالمناسبة أنا زميلك في.. أ.. -أحم- زميلك في نفس الكبسولة، مجموعة ب، في الشهر الماضي، أقصد في فترة السبات الأولى عندما ذهبت إلى هناك، اكتشفت بالصدفة الخلل الذي حدث في كبسولتنا، كـ.. كبسولتك، السبب الذي أخّر دخولي، بحثت عنك كثيرًا، وجئتك اليوم أخيرًا، لأعرف سبب التأخر، سوف يساعدني هذا جدًا في

البحث الذي أجريه.

كانت تنظر حولها في ارتباك، ولمّا انتهيت أجابت في تعجب:

- عن أي تأخر تتحدث، لا أعلم أي شيء مما تقول.

- ألم يخبروكِ حتّى أنّهم أخذوك إلى غرفة الطوارئ حتى تستفيقي من السبات.

- صدّقني لا أعرف أي شيء.

- هل تعانين من أي أمراض؟

- لا.. آا.. ربما فقر بسيط في الدم، وأحيانًا ينخفض ضغطي، لا أعلم غير ذلك.

- هذا حسابي الشخصي، أرجوكِ أريدك أن تجري بعض التحليلات والفحوص التي سأطلبها منكِ وترسلي لي النتائج، وإذا أردت سوف أجريها لكِ مجانًا، وأريدك أن تحاولي معرفة سبب هذا الاضطراب والتأخر الذي حدث أثناء سباتك، لقد منعوا أي مسائلات صحفية، ولكن أعتقد أنّه من حقك أنتِ أن تعرفي، لأن الأمر يخصك شخصيًا.

- أعتقد أنه إذا كان هناك مشكلة مثل تلك يجب أن يخبرونني مباشرة.

- صدقيني، أشعر أن هناك أشياء خطيرة مخفية عنّا، لماذا يمنعون الصحافة في رأيك؟! كل التقارير التي تخرج موالية لهم، يجب أن تثقي بي، وتساعديني على إنهاء بحثي.

- اسمع يا دكتور، في المرة الثانية من السبات خرجت مبكرًا عن المرة الأولى، أذكر ذلك، أنا أعلم أنني تأخرت في فترة السبات الأولى، ولكن لم أسأل عن السبب، واعتقدت أنه فقط خطأ في المواقيت، لأن التجربة في بدايتها، لا أعلم شيئًا عن أمر دخولي الطوارئ، ولكن..

قطع حديثها بغتة صوت رجل يرتدي بذلة سوداء، ويبدو أنه صاحب المقهى، يقول في لهجة لا تحمل أي ذوق:

- الزبائن تنتظر طلباتها وأنتِ هنا تقضين وقتًا لطيفًا مع صديقك، ألا يكفيك تقصيرًا واستهتارًا، مخصوم منك أسبوع يا رغد.

أسبوع!.. يا لهذا الوغد، قلت في نفسي، كدت أتحدث معه لأقنعه بأنني السبب، ولكنها غادرت مسرعة، غاضبة ومحرجة، ثم ذهب هو، تململت، ثم ذهبت في ضيق شديد، وبدون أن أطلب شيئًا، أو أحاسب على شيء، وهكذا كان اللقاء الأول بيننا، نذير شؤم عظيم.

الفصل السادس

1

في الليل، حيث لا تمل صراصير الليل والضفادع من عزف وتكرار سيمفونياتها يوم بعد يوم، أصبحت عادتي أن أجلس مع تويا، رفيقة مجموعتي، في الاستراحة، لتعد لي كوبًا من القهوة التي تجيد إعدادها، كم أحب القهوة في المساء، وكم أحبها في الصباح، نتحدث في مواضيع شتى، قالت:

- هل تعرف، هناك أمر غريب حدث معي أثناء السبات.

- خير!

- لا تقلق، شيء بسيط، لكنّه غريب، لقد استيقظت بعد يومين أو ثلاثة فقط من سباتي، ظننت حينها أنني أنهيت فترة السبات، وأن هناك خطأ في التاريخ المكتوب، ثم اتضح لي أن الخطأ كان في الكبسولة نفسها، جاء المختصون سريعًا وقالوا لي إنه خطأ تقني غير مقصود، لقد استيقظتِ قبل موعدك، لا تقلقي، إنه أمر بسيط، كنت في حالة خمول غريبة، حتّى أنني أظن أنّه كان حلمًا، لا أعرف، ولكنّهم أعادوني إلى السبات، واستيقظت بعد ذلك في موعدي بشكل طبيعي.

شعرت بضيق شديد لما قالت ذلك، وشعرت بالقلق، إذا كان هذا النظام

ليس مهيأ بعد فلم يورطون العالم أجمع في أمر كهذا، لكنّي لم أعقّب على كلامها، لم أجد ردًّا أقوله، وكان هناك أمر آخر يشغل عقلي، وهو أن رغد لم تتصل أبدا منذ آخر مرة رأيتها، كل دقيقة كنت أنظر في شاشة الهاتف حتّى أتأكد هل اتصلت أم لا، ولاحظت تويا ذلك فقالت:

– انس الأمر يا ياسين، مرّ على آخر لقاء بينكما أسبوعًا كاملاً، هذه المدعُوّة رغد لن تتصل، خصوصًا بعدما سببته لها في العمل، والموقف المحرج الذي تعرضت له أمامك.

– لا تقولي ذلك، عندي شعور قوي بأنها ستتصل.

وكانت الصدفة المثيرة للعجب أنها اتصلت في تلك اللحظة، أنتظر اتصالها من أسبوع، ولكنها تتصل تمامًا في هذا الوقت المتأخر، الذي قُلت فيه تلك الجملة، لتزيد تعلقي بها شغفًا، أنظر لتويا بدهشة وسعادة، وتنظر لي في عجب شديد، أفتح شاشة الهاتف لأزيدها اتساعًا، وأجيبها وتويا تتابع من بعيد:

– دكتور ياسين، معك رغد التي قابلتها في المطعم، آسفة على الاتصال المتأخر؟

– رغد أذكرك جيدًا.

– هل أنت مشغول الآن، أريد مقابلتك، أرسل لي موقعك ونلتقي في مكان قريب منك.

– لا.. أنا بعيد، أرسلي أنتِ موقعك وسأكون عندك بعد نصف ساعة.

– تمام.. أنا في انتظارك.

تابعت تويا المكالمة بشغف أكثر مني، انتهيت فقالت:

– سآتي معك.

– والاستراحة؟

- عادي، أغلقها.

- بأي صفة تأتين معي يا تويا، أقول لها تويا جارتنا!! انتظري هنا وسأحكي لكِ كل شيء لما أحضر.

فكّرَت قليلًا، وأومأت في ضيق وهي تقلد الأطفال..

- حسنًا، خذ حذرك، ولا تتأخر، سأنتظرك.

وانطلقتُ تسبقني روحي إلى المكان المقصود، حيث كانت جالسة، شاردة، شعرها الكثيف مربوط فوق رأسها، ويبدو أنها تسمع موسيقى، عرفت ذلك من إيماءات وجهها وشرودها، سحبت كرسيًا، وجلستُ فانتبهَتْ، ابتسمَتْ، ثم ضغطت ضغطتين على أذنها لتوقف ما كانت تسمعه وقالت مازحة:

- تأخّرت.

وتلعثمت: ع.. عشر دقائق فقط، الطريق طويل.

ضحكت، فتأكدتُ أنها تمزح، الضحك يبدد التوتر، خصوصًا في اللقاءات الأولى، ولكن ذلك لم يحفز قدرتي على افتعال الحوار، صمت أخرس، وابتسامات وإيماءات متبادلة، أكره تلك اللحظات، ولكنها قالت ببساطة:

- كيف حالك؟

- بخير، وأنتِ؟

- لا أعرف.. دكتور أنا صحفية، خريجة إعلام، بواسطة شهاداتي وعلاقاتي حاولت أن أدخل صرح السبات، لأجمع أي إحصائيات وبيانات، معك حق، هناك حالة تعتيم إعلامي غريبة، يبدو أن كل الموظفين ممنوعين من الكلام، أما كبار المسئولين، فكلامهم المعسول المطمئن يثير شكوكي أكثر.

- أخبرتك.

- حاولت أن أعرف سبب تأخري، الكل يجيب بأنه مجرد خطأ في ضبط التوقيت، ولكن إن كان ذلك، فلِم أستيقظ في غرفة خاصة! وليس في الكبسولة مثل المرة الأولى؟!

- أقسم أنني رأيتك بعيني تدخلين الطوارئ على نقّالة خاصة.

- دكتور، ما يثير الريبة في نفسي أن إحدى صديقاتي ماتت فعلا بعد أن خرجت من السبات بأيام قليلة، نعم كان عندها سرطان في طفولتها ولكنها عولجت منه، التقارير تقول إنه عاد مرة أخرى وهي لم تعلم، ولكن هل يقتل السرطان فجأة بتلك الطريقة وهي حتى لم تشتك، الأمر غريب.

- أنا متأكد أن هناك شيء مريب، وسوف أكشفه عاجلًا أم آجلًا.

- أخبرتني أنك تجري بحثًا عن نظام السبات.. ما هي النتائج التي وصلت إليها حتى الآن؟

- في الحقيقة لا شيء على الإطلاق، اعتقدت أنك الخيط الذي يقودني إلى المزيد من الأدلة، هل أجريتِ التحليلات التي أخبرتك بها؟

- أنت لم تخبرن أي نوع من التحليلات تريد يا دكتور.

- .. حسنًا، يمكنك أن تأتي لي غدًا، لن يستغرق الأمر إلا ساعات قليلة.

بدا على وجهها ضيق غريب، قالت في يأس:

- للأسف لن أستطيع، يجب أن ننتظر للأسبوع القادم مثل هذ اليوم، يوم إجازتي، هل تصدق أن كل تلك المشاوير التي أخبرتك بها أتممتها اليوم فقط، وهذا هو سبب اتصالي بك متأخرًا، آسفة على ذلك مرة أخرى.

- لا لا. ليس هناك أي مشكلة أبدًا، بالعكس أسعدني اتصالك جدًا.

- حسنا يبدو أننا سننتظر إلى الأسبوع القادم.

- اسمحي لي أن أسألك سؤالاً شخصيًا، ما الذي يجبرك على العمل مع

هذا الرجل، هو قليل الذوق، وهذه ليست أفضل وظيفة لخريجة إعلام، أرى أنك تستحقين عملاً أفضل، على الأقل يوفر لكِ وقتًا أطول.

- ظروف.

كلمة واحدة أجابت بها على سؤال طويل، ظهر على وجهها علامات ضيق وإحراج شديد، وعدوى المشاعر أصابتني بنفس الإحساس، قُلت:

- رغد أنا أعرف أنكِ كنتِ تعيشين قديمًا في مساكن العمال على طريق الإسكندرية، في الحقيقة أنا أعيش في هذه المنطقة حتى الآن، فيلا يحيى العسال لو تعرفينها، كنّا جيران في طفولتنا، وأعتقد كنّا زملاء في نفس المدرسة الابتدائية أيضًا، ولعل عنوانك القديم هو السبب في أننا بالصدفة نتشارك نفس كبسولة السبات.

- حقيقي! كم أحببت هذه المنطقة، ليتني أعود إلى هناك.

تأكدت لتوي أنها هي، عمّ صمت قليل، دقّقت النظر في أعينها، شيء يدفعني نحوها، شعور بالأمان والطمأنينة، قلت في تردد:

- رغد.. ليس تطفلاً، ولكن.. أريد حقًا أن أعرف السبب، ما الذي يجبرك على العمل في هذا المكان، ربما أستطيع مساعدتك.

تحيرت قليلًا، أخذت نفسًا عميقًا، وكأنها أخيرًا ستفرغ ما بصدرها، من نظراتها عرفت أنها قصة طويلة، أحيانًا نحتاج فقط إلى من ينصت، وكنت هذا الشخص بالنسبة لها:

- أنت الآن تعرف أين كنا نعيش مسبقًا، كان والدي يعمل بشركة هناك أعلنت إفلاسها في التداعيات التي سبقت الكساد ببضع سنوات، ولذلك كان يعيش هناك بلا عمل، في وقت أمي كانت مريضة فيه، اضطر أن يبيع هذا البيت مقابل مصاريف عملية جراحية لأمي، أخذنا شقة أيجار في

القاهرة، ولكن أبي لا عمل له، ومصاريف الإيجار تتراكم شهرًا بعد شهر، حاول أبي العمل في أكثر من مكان، ولم يكن المرتب يكفي فردًا واحدًا، بل وكان يعامل بإهانة، ثم يعود إلى البيت ليشاهدنا ونحن ينهشنا الجوع والفقر، اكتأبَ، وخشيت أن يسوء حاله فتصرّفت، واستطعت أن أستلف مبلغًا كبيرًا من أستاذ أمين، ذلك الرجل الذي رأيته بالمقهى، وقّعت له على عقد أتعهد فيه بالسداد عند وقت محدد، وذلك الوقت قد مر بالفعل، أستاذ أمين كان لديه أموالاً كثيرة في البنوك، ولكن بعد النظام الجديد، ذهبت أمواله كلها هباء، ولم يعد له أملاك إلا تلك المقهى، تعنّت بعد ذلك مطالبًا بأمواله، أمواله التي لو كانت معه أصلًا لتم مسحها، ولكن بيننا عقد إلكتروني حوّل آليًا قيمة العملات من قديمة إلى حديثة، في ذلك الوقت تم إغلاق الصحيفة التي كنت أعمل بها، بعد تطور الترجمة الآلية كل الناس تتابع الصحف العالمية الشهيرة، فضعفت جدًا حركة الصحافة في مصر، ثم عرض عليّ أستاذ أمين أن أعمل عنده وأقبض مبلغًا زهيدًا، مقابل أن فرق المرتب يُخصم شهريًا من ذلك الدين، ولم يكن أمامي حل إلا أن أقبل.

- ألا يمكنك مثلًا العمل في مكان آخر، وتسديد الدين دون العمل معه.

- لا يوجد مكان عمل مضمون هذه الأيام، كما أنه لن يضمن أن تسدد له أمواله إلا بتلك الطريقة.

- وماذا لو أقرضتك أنا ذلك الدين؟؟

2

- تسلفها !! أنت مجنون؟!!

ذلك ما قالته تويا، فورًا بعد ما حكيت لها ما حدث في لقائي مع رغد، التي لم توافق على عرضي بسهولة أبدًا، ولكني أصررت، في الحقيقة.. خرج قولي في البداية دون إرادة مني، وأنا لا أملك أصلًا ما يسدد المبلغ الذي اكتشفت أنها تحتاجه، مصيبة أخرى، ولكن لم أتنازل عن موقفي، فكّرت سريعًا في بيع شقة والدي، أردت أن أساعدها بأي طريقة، ومهما كلّف الأمر، هل سأجد مشترٍ بهذه السرعة؟! وكيف سأقتع جدي؟؟ تلك الأشياء لم أكترث لها، وأما حديثي مع تويا، فتمنيت لو كنت أبقيت الأمر سرًا عنها.

- افهمي يا تويا! البنت في محنة، وتحتاج إلى أي مساعدة.

- محنة!! أنت طيب جدًا، هذه الفتاة نصابة.

- كفّي عن ذلك أرجوكِ، إنها لا تكذب، رأيت معاملة صاحب المقهى لها، وأيضًا أنا أعلم أنها ابنة عامل بسيط متقاعد، أنا أثق بها.

- كيف تثق بها، أنت لم ترَها في حياتك إلا مرّات معدودة!!

لا فائدة من هذا الحديث، تويا تراني مغفلاً، وماذا أقول لها، هل أحكي لها قصة الحلم والمدرسة!! هكذا سأؤكد لها أنني مجرد أبله، لن يفهمك من البشر إلا نفسك، لأن ليس فيهم من عاش تجاربك، فسحقًا لهم، افعل

ما شئت.. ربما توبا تغير من رغد، تلك الفتاة التي ظهرت فجأة وأصبحت محور كلامي، كان علي أن أنهي هذا النقاش غير المثمر.

- توبا لا فائدة من كلامك، سوف أبيع شقة والدي وأفعل ما وعدتها به، عن إذنك، الوقت متأخر وأريد أن أنام.

وبينما أذهب قالت:

- سوف تندم عندما تكتشف أنها مجرد نصابة.

ولكنّي لم أُعِرها أي اهتمام.

3

اقتحم الدخان المنحل الصغير، لينبّه النحل بعضه بحالة الطوارئ، وبعد دقائقٍ قليلة أخرجت اللوح الرفيع المعبأ بالعسل الخام، وبفرشاة ناعمة جدًا أبعد النحل المتشبث باللوح، ثم أقوم بتعبئته في أوعية مناسبة، وعلى الخلية المجاورة كان جدي، يفعل تمامًا مثلما أفعل، ولكنه يفعل ذلك بدون زي واقي، وباستمتاع شديد، كمن يمارس هواية محببة، لا ينسى جدي كل مرة يفتح فيها الخلية أن يقول "بعد إذنكم يا أحبابي، حان موعد قطف العسل" والنحل يطوف مترنحًا حوله، وكأنه يعرفه جيدًا، علاقة حب متبادلة، أشعر به يحدثهم في نفسه، يقول: "سوف أهتم بكم يا معشر الكائنات الصغار، وأزرع لكم الورود، وأمنع عنكم حرقة الشمس، ورياح الشتاء العاتية، مقابل بعض العسل الفائض" وأما النحل.. فهو لا يمانع أبدًا، يقف على جسده، ولكن لا يلدغه، فقط يدغدغه، ما أجمل أن يهوى المرء ما يفعله.

رأيت أن ذلك الوقت المناسب لأفاتح جدي فيما يشغلني:

- جدي، أريد أن أبيع شقة أبي.

انتبه، فتوقف عمّا كان يفعله، وولّى وجهه تجاهي، يبعد النحل بكفه برفق ويقول.

- تبيعها!! ولم؟!

- نحن لا نستخدمها على أي حال، وهناك صديق في محنة، عليه ديون ولو لم يسددها سوف يسجن.

- صديق في محنة!

- صديقة.

- صديقة؟! تبيع شقة والدك من أجل صديقة، هل تدرك ماذا فعل كي يشتريها؟؟

- وقد اشتراها، وعاش فيها حتّى آخر حياته، أخبرني ما احتياجنا لها الآن؟!

وبدأت نبرته ترتفع بسخط وغضب:

- كيف تفرط في ميراث أبيك بهذه السهولة، أنت عديم الإحساس.

- وأين الإحساس في أن أرى شخصًا في محنة وأتركه وأنا قادر على تقديم المساعدة، الحياة أكبر من مجرد تشبث بالماضي يا جدي، لست أهوى جمع الخردوات مثلك.

- خردوات!! أنت أبله، لا تقدر قيمة الأشياء، كل شيء عندك تافه، جيلكم فاسد، وزمنكم ضائع، لا يستحق العيش.

- في كل زمن ما هو سيء وما هو جيد، ولكنك يا جدي أعمى عن كل ما هو جيد، عاجز عن التأقلم، لأنك متشبث بماضيك، ومحبوس فيه، أتعلم يا جدي.. لستم أنتم ضحية زماننا، بل نحن ضحية زمانكم، كل شيء لا يعجبكم في وقتنا، كان في وقتكم بذرة، أو نبتة ضعيفة الجذور، تركتموها فتضخمت وتفرعت، ثم تتهموننا بأن زماننا لا يستحق العيش، بدلًا من أن تعتذروا لنا عمّا بدر منكم، ثم تريدون منّا أن نعيد نفس أخطائكم، ليتكم تفهمون.

تحدثت بغضب شديد، ثم حملت وعاء العسل وذهبت، وفي مخزن العسل، خلعت الرداء الواقي وجلست على المقعد، أتنهد، واضعًا كفوفي على جانبي جبهتي، كيف حدثته بهذه الطريقة! لقد خرجت عن شعوري مثل قطار يخرج عن مساره، ندمت، وقلقت عليه، خشيت أن يؤذي نفسه مرة أخرى، لن أسامح نفسي لو حدث له مكروه، ولكن.. بعد دقائق معدودة سمعته يناديني:

- ياسين، يا ياسين.

خرجت من المخزن، فوجدته واقفًا على بعد أمتار، رمقني بنظرة يملأها عطف وعتاب، ثم سألني:

- هي حلوة؟

- مَن؟!

- تلك الصديقة التي تريد مساعدتها.. حلوة؟

ارتبكت، وأجبت:

- ... جدًا.

- حسنًا.. افعل ما تريد، ولكن أولا دعني أراها.

4

كانت شقّة والدي معبّأة بالأتربة، وفي كل ركن من أركانها تفوح روائح الذكريات، للبيوت القديمة شعور غريب، مزيج من السعادة والألم، هنا كان يجلس والدي. هنا كنت أحب أن ألعب بالتابلت القديم، هنا كنت أختبئ من أمي، وهنا كان أبي وأمي يتشاجران، أذكر جيدا هذه اللعبة المكسورة، وهذا الدرج المليء بالكراكيب، قضيت نهارًا كاملاً أنظفها، صورتها لعرض البيع، كم كان ذلك مُجهدًا، وكان علي أن أذهب إلى الفيلا سريعًا، حيث اليوم موعدي مع رغد، التي منذ أسبوع لم تتصل بي أبدًا، فاتصلت أنا لأخبرها أن جدي يريد أن يراها، وأن نستغل هذا اللقاء في إجراء الفحوصات الطبية التي أطلبها منها، كم ينغصني ذلك، أنها لا تهتم، ولا تتصل، لا أريد أن أكون ملحًا، يكفيني عرضي بأن أقرضها ذلك المال، والذي هي لا تعلم ماذا فعلت كي أوفره، أشعر بضيق شديد، ورغم ذلك يملؤني حماس واضطراب عندما أفكّر أنها سوف تأتي، قررت ألا أتصل ثانية، وفي الفيلا وجدت عم رمزي، الذي أصبح يتردد علينا كثيرًا، أخذت حمّامًا سريعًا، ومع الشمس الغاربة نزلت لأرافقهما جلستهما، جاء عم رمزي برفقة كَمَانٍ صغير، كان يعزف بها، ولمّا خرجت قال، جدي:

– طبعًا، لازم تستحم، من أجل صديقك الذي في محنة.

ويغمز لي عم رمزي بعينه، وقبل أن يبدأ التحفيل، قُلت:

- لم تتصل، وربما لن تأتي.

يغمز عم رمزي مرة أخرى بطريقة بلهاء، ثم يقول:

- لا تقلق، طالما لم تتصل والأمر ضروري، فإنها تسعى إلى اهتمامك ههه هه هه.

ويضيف جدي بلهجة ساخرة: إنه لا ينام الليل مذ رآها.

يتابع الآخر: الحب يا يحيى، ههه هه راح فين زمن الشقاوة يا حسين، دايما على بالي هه هه هااي.

كان يغني كلماته الأخيرة، وأنا لا أفهم أي شيء مما قيل، وجعل جدي يضحك، تلك الألغاز التي لا يفهمها سواهما، وكان علي أن أحيد عن المنعطف الذي اتخذه حديثهما، قلت:

- لم لا تغني لنا، هل تجيد العزف على هذه الآلة.

فقال محدثًا جدي: هات البيانو وتعال نعزف سويًا يا يحيى.

وأجابه: أنت تعرف أنني اعتزلت العزف، وفقدت هذه القدرة من قلة الممارسة، اعزف أنت، اعزف شيئًا تحفظه، شيئًا قديمًا.

وشرع يعزف، لحن طال، لحن كلاسيكي، يرقص الكمان على نغماته، عذب ورائع ومتناسق، وعرفت أنه سيغني شيئًا قديمًا، قديمًا جدًا، جدي مستمتعًا، في بهجة تتمايل رأسه، ومن حين إلى حين يشير بكفه للكمان، وكأنه يقول لي "اسمع فلن تتكرر هذه الألحان المتأنّية في زمانكم العجول"

وأخذ عم رمزي يغني وهو يعزف:

"ماخطرتش على بالك يوم تسال عني،

وعنيا مجافيها النوم، النوم يا مسهرني

أنا قلبي بيسألني، إيه غير أحواله

ويقولي بقا يعني، يعني ماخطرتش على باله على باله"
وأخذ يتبسّم متمزّجًا، وهو يغنّي:
"أمال غلاوة حبك فين، وفين حنان قلبه عليا
وفين حلاوة قربك فين، فين الوداد والحنيه"
ثم شرع جدي يغنّي معه، متمايلًا في سعادة بالغة:
"يا نسيني، وانت على بالي وخيالك، ما يفارق عيني.. ريحني، واعطف على حالي وارحمني، من كتر ظنوني
أه يا نسيني، وأنت على بالي وخيالك، ما يفارق عيني ريحني، واعطف على حالي وارحمني، من كتر ظنوني
لا عنيا بيهواها النوم، ولا بخطر على بالك يوم
تسال عني .. يااا يا مسهرني"
– أم كلثوم، هذه الأغاني ليست من أيامنا، بل أيام أجدادنا، لكنها لم تفقد قيمتها إلى اليوم، لأنها صنعت بروح واهتمام وتأنٍّ، واحترام للمتلقي.
قال جدي، ثم جعلا يتحدثان عن أيام طفولتهما، ألغاز لم أفهمها أبدا، حتّى اتصلت رغد، فبعدت عنهما وأجبتها، كانت تتأكد من المكان، وبعد دقائق معدودة رنّ الجرس، ذهبت لأفتح، بينما يغني عم رمزي وهو يخبط بكفّيه على الكمان:
– يدق الباب، أقول هي، أقول رجعت، خلاص ليّ.
وشرعا يضحكان، لم تكن بداية مبشرة.
فتحتُ، وكانت باسمة ترتدي فستانًا أخضر قصيرًا، تعلم أنّها ستلقى جدي، فارتدت شيئًا كلاسيكيًا، لا أدري صدفة أم ذكاء منها، قُلت بلهجة ساخرة:
– تأخرتِ!

- الطريق طويل، ثم أننا لم نحدد موعدًا معينًا.

- تعالِ أعرّفك على جدو يحيى.

ودخلت تتبعني، أشرت لجدي وصديقه وقلت "رغد" وجاءت تشير من نفسها إلى جدي:

- جدو يحيى؟

فقال: نعم.

فأردفت تحدثني: يشبهك كثيرًا!

أشرت لها إلى عم رمزي معرّفًا إياه، فسلَّمَت بخجل، ثم على جدي، وجلسَت جواره، وأنا بينها وبين عم رمزي، الذي اقترب من أذني يغنّي هامسًا ويخبّط على كمانه:

- كان عندك حق، تدوب وترِق، وترجع تاني يا..

فقاطعته بصوت جهور يغطي ما يقول:

- أاا عم رمزي كان يغني مع جدي في فرقة واحدة زمان يا رغد، لم لا تغنيان لنا شيئًا مع العزف الجميل؟

- في الفرقة لم نكن نعزف بالكمان، بل بالجيتار والبيانو والساكسفون والترومبيت وغيرهم.

- حسنًا، دع الكمان وغنّي.

وقبل أن يجيبني حدث أمر غريب، بغتة يقوم جدي من مكانه ويقول:

- اعذروني يا شباب، أشعر بتعب ودوار شديد، سوف أصعد إلى غرفتي لأرتاح قليلًا، أعتذر مرة أخرى، ولنؤجل هذا اللقاء إلى يوم آخر.

وذهب متكئًا على عكّازه، وأعيننا تتبعه في ذهول.

- جدك صحته على قدها هذه الأيام.

قال عم رمزي، وأضفت:

- سوف أذهب لأطمئن عليه، عن أذنكم.

صحبته حتى غرفته، وسألته:

- جدي هل هناك ما يضايقك؟

- لا، أبدًا، بالعكس، إن صديقتك جميلة، وملامحها تشير أنها خلوقة وأصيلة، ولكني حقًا، متعب.

قال ذلك وهو يسحب مقعده الخاص، ثم يضعه أمام دولابه القديم، هذا الدولاب الموصد بالأقفال دائمًا. الكيان الخشبي الذي لم أنظر داخله في حياتي، إن فتح هذا الدولاب جريمة محرمة، تمامًا مثل فتح درج الجبلاوي في رواية أولاد حارتنا، قال جدي:

- اذهب يا ياسين، واتركني، أريد أن أرتاح قليلًا، وخذ الباب في يدك.

فلبّيت دون لفظ، من حين إلى حين يحب جدي أن يجلس مع دولابه، كثيرًا أسمعه يحدثه من خلف الباب، بصوت خافت يحكي، أو يبكي، كنت دائمًا أرى أن ذلك الدولاب المسكون هو السبب الرئيسي الذي أدى إلى تدهور حالته النفسية، يناديه كالنداهة فيخضع جدي له مسحورًا، في أي وقت وحين، ولكن ما أصعب التخلص من دولاب الجبلاوي المقدس، ولمّا نزلت وجدت رغد تضحك مع عم رمزي، ماذا قال لها هذا العجوز الآخر، استر يارب.

- هل هو بخير؟

سألت رغد، وفي اطمئنان أجبتها:

- بخير، علاجه يحتوي على مهدئات، كما أنه معتاد أن ينام مبكرًا، لا تقلقوا.

كانت الأضواء حولنا في الفيلا مسلّطة على أحواض الأزهار، وفي سفوح

الأشجار، أشجار البوانسيانا، ما أجمل تلك الشجرة في موسم الإزهار، تصبح شجرة كاملة من الأزهار الحمراء، إنه مشهد جميل لا يعرف القدم، تتساقط أوراقها على الأرض، فتصوّر المكان وكأنّه الجنة، أو كأن عروسين يافعين قد مرا لتوهما من هذا المكان، وكان حولهم الفتيات الجميلات يلقينهما بأوراق الورود، تتراقص ينابيع النافورة في وسط الفيلا على الأنوار الهادئة، والبدر حلية من لؤلؤ زينت عنق السماء، والقط شرودنجر لأول مرة أراه بهذا النشاط، يلاحق النحل الذي يتراقص على مسارح الزهور، ولم يحصل أن أمسك بنحلة أبدًا، وكأنه فقط يداعبهم، أما الأزهار في الأحواض، فكلها مقفولة إلا أزهار الهيبسكس المفتوح، حمراء متفتحة لا تنام، إنها زهرة الجمال عاشقة للنجوم، سألَت رغد:

- لماذا يكثر النحل عندكم في الليل، هل تربون نحلًا هنا داخل الفيلا؟

- نعم، لدينا منحل خلف المبنى، والنحل أحيانًا يخرج في الليل على ضوء المصابيح.

سكتت قليلًا، تأملت النحلات وهي تتنقل من زهرة إلى أخرى، ثم سألت:

- هل يمكنك أن تفرجني على بيوت النحل؟

- أكيد، ولكن بهذا الفستان القصير، يفضّل أن تشاهديه من بعيد.

- لا بأس.

قالت مبتسمة بعينان يملؤهما الشغف، نادر جدًا أن أرى فتاة تحب النحل ولا تخشاه، وسألتُ عم رمزي مضطرًا:

- هل تريد أن تشاهد المنحل معنا يا عم رمزي؟

فقال بحماس: نعم.

- حبيبي يا عم رمزي.. هيا بنا.

ذهبت وكلاهما يتبعني، وعلى بعد مناسب جعلت أشير لهما وأشرح، أين تضع الشغالات العسل، وأين تكمن الملكة، كيف نصطاد خبز الملكات، والذي يتكون من حبوب اللقاح التي تجمعها الشغالات لتغذية الملكة، وسردت كل ما أعرفه تقريبًا عن تربية النحل من معلومات للحماية والتطوير والتربية، والنظام الذي يتبعه النحل في تقسيم المهام من بين حراسة وخدمة للملكة وتلقيحها، وهما ينصتان في انتباه شديد، حتّى سألت رغد:

– وهل للنحل لغة يتواصلون بها مع بعض مثل الإنسان، أم تلك الأشياء يفعلونها عن فطرة فيهم؟

ابتسمت، وأجبتها وأنا أعلم أنّهما لن يتوقعا الإجابة:

– ليس للنحل لغة واحدة، بل أربع لغات.

ووسط دهشة الاثنين، أردفت:

– النحل تقريبًا أصم بالنسبة للأصوات المنقولة جوًا، ولكنه رغم ذلك حساس جدًا للأصوات في الأجسام الصلبة، حيث يتم التقاط ذبذبات الصوت ونقلها عبر ساق الرجل، فيسمعون بعضًا عن طريق النقر، ويعرفون أيضًا إن كانت هذه النقرة لنحلة عادية أم غزو لحيوان أكبر حجمًا، كما أن الملكات أحيانًا تحدث أصوات صفير، يدركها النحل من خلال الأرضية والجدران فيعرفون مكانها، واللغة الثانية للنحل عبارة عن شحنات على الجسم تكونها الشغالات وتنتقل من نحلة لأخرى عن طريق اللمس، والثالثة هي لغة الروائح، وتعتبر ثاني اللغات الأكثر استخدامًا للنحل، فهناك روائح للتحذير، والتجنيد، والتعرف، والانجذاب، وغير ذلك، أما اللغة الأولى للنحل، فهي لغة الرقص.

اندهشت رغد للمرة الثانية، وأضفت مفسرًا:

- تعتبر لغة الرقص هي لغة التفاهم وإصدار القرارات عند النحل، وهي لغة معقدة جدًا، فمثلا تذهب الشغالات أولًا للبحث عن أماكن غنية بالورود والرحيق، ثم تعود إلى الخلية فقط لترقص، حركات اهتزازية وحركات دائرية، تتحرك في اتجاه مدخل الخلية، وتطير للخارج ثانية، ثم تلف وتجري بخط مستقيم وتهز بطنها جانبيًا، وهكذا.. بينما يتابعها النحل بشغف وتركيز، كمن يحضرون عرضًا مثيرًا، فكل حركة لها مدلول، ومن خلال هذه الرقصات تعرض لهم النحلة معلومات دقيقة عن مكان الرحيق والمسافة المحددة نحوه والاتجاه المقصود، وبعد انتهاء العرض، فإن الموقع الذي ينال أكبر عدد من الرقصات، يغادر إليه الطرد بأكمله.

- روعة!

قالت رغد، ثم سألها عم رمزي:

- هل تحبين الرقص؟

- جدًا.

- ترقصان؟

أضاف عم رمزي يسألنا، ولم يجب أحد منّا، ولكنه رفع كمانه دون إذن، وشرع يعزف، رائعة إيتزاك بيرلمان، معزوفة التانجو، مرّت حوالي دقيقة وهو يعزف، وكلانا واقفًا يتابعه، المعزوفة رائعة، وسحر الموسيقى يذيب الثلج ويحرّك العاطفة، وجدت يدي مسحورة باللحن ترتفع فتدعوها للرقص، ووجدت يدها مسحورة باللحن تقبل وتتشبث بأصابعي، خلف كشاف الضوء الأبيض عم رمزي، لا يظهر منه إلا ظلًا عازفًا، والنحل أزواجًا يطوف حولنا متراقصًا على الألحان، راقصتها، وفستانها القصير يفرد جناحيه كلما رفعت ذراعي لألفها، وشعرت أن النّحل قد تجمّع أسفل

أقدامنا، فحملنا على سحابة من الشمع تجول في السماء، قلبي المضطرب يخفق وكأنه في ورطة، وعينها تضحك بسعادة وكأنها الجنّة، طال اللحن وطال الرقص، إلى أن قال عم رمزي: يكفي هذا.

فتذكّرت أنّه هنا، رحلت هاربة، وذهب يتبعها، وبقيت واقفًا في مكاني، تملّكت أعصابي، بهدوء سحبت شهيقًا طويلًا، وأخرجته ببطء من فمي، ثم تبعتهم، وكانت رغد واقفة، تسألني في خجل:

– ألن تجري الفحوصات التي أخبرتني بها؟

– أي فحوصات؟

– الفحوصات يا ياسين، التحاليل والفحوصات الطبية.

– آه.. نعم.. في الحقيقة لست طبيب تحاليل، كنت أريد أن تأتي مبكرًا لآخذك لمعمل قريب، وهم أصدقائي وموثوقين، ولكن يبدو أننا سنؤجل الأمر لوقت لاحق.

– إذًا يبدو أنني جئت اليوم بلا فائدة.

– أبدًا.. من حسن حظنا أن نراكِ أكثر من مرة.

ولم أكن أنا الذي أجابها، بل عم رمزي، أمّا أنا.. فكعادتي يعجز لساني عن أي قول كأنه حديد صدئ، فتحدث عم رمزي لينقذ الموقف، أبدعت اليوم يا رجل، ما أجملك، وقالت رغد:

– حسنًا، سوف أذهب الآن، تأخرت كثيرًا.

وأجبتها: شكرًا، مع السلامة.

شكرًا! ماذا تعني شكرًا؟ ولم قلت شكرًا؟! لا أعلم، ولكن هذا ما قلته، ثم أظل واقفًا في مكاني، نادمًا على ما قلت، حتّى نسيت أن أوصلها خطوة واحدة، فارتكبت ما هو أغبى، وتركتها تذهب وحيدة، وأنا أفكر كيف قلت ذلك حتّى اختفت.

5

مرّت دقائق وأنا أجلس إلى جوار عم رمزي، كان يداعب كمانه، ويضبط أوتاره، وأنا أفكر في رغد، أو بتعبير أدق، أتذكر رقصتي مع رغد، ولا أدري كيف علم عم رمزي أنني أعشق تلك الموسيقى، وأحب هذه الرقصة، وكيف كانت هي الأخرى تتقنها، ولكن ذلك لم يكن غريبًا لهذه الدرجة، فمن يعرف هذه الموسيقى ولا يعشقها! أما الأغرب، فهو هذا الجالس بجواري، عم رمزي نفسه، قلت له:

- من يراك أول يوم في صرح السبات، لن يتخيل أبدًا أن يكون هذا أنت، تلك الشخصية المبدعة المحبة للموسيقى كيف تتصرف يومًا بهذا الجنون؟

- لقد اكتسبنا مهارة التغاضي عمّا لا يمكن تغاضيه، والإبداع هو صرخة الفنان في أغلب الأحيان، صرخة هروب من واقع أليم، وفي نفس الوقت صرخة تصلح من هذا الواقع، أو توضّحه، أو فقط تجمّله، صرخة تساعد الناس على العبور.

- أخبرني يا عم رمزي، اشرح لي وجهة نظرك، أريد أن أسمعك.

وشرع عم رمزي يفرغ ما في قلبه، قال العديد من الأشياء، قال:

- منذ عقود عدّة، وأنا أشعر أن هناك مجموعة من العجائز يسيطرون على القرارات، يحكمون الدول الكبرى والصغرى ولهم جذور في كل

كيان، ولا نمو لدولة إلا من أجل مصلحتهم، ولا رئيس يأتي إلا وكان تحت إمرتهم، والآن انظر.. كل قيادات العالم تقبل بذلك النظام الجديد، هل تدري لماذا، لأن كلهم يخدمون نفس المجموعة، والأسباب كثيرة، رد جميل، وغالبا يكون ذلك الجميل هو وصولهم لهذا المنصب، أو سعيًا وراء وعود مغرية، وعود بالدعم وضمان البقاء والأمان والثراء، أو حتى خوفًا من تهديدات بالفضح أو القتل، ومن خرج عن طوعهم، فإنه تحت الهجوم، خائن مفضوح وعميل إلى آخر حياته، والشعوب سهل السيطرة عليها وإقناعها بالجهل والتخويف، فالجهل كفيل بأن يغطي عين الشمس حتّى الظلام، والخوف يزور أرحام الشعوب وينجب صمتًا، فيتحول الناس إلى مجرد أداة، لأن أغلبهم لا يعرف شيئًا عمّا يجري، سياسات شجعت التخلف ودعت له، واليوم، ومع هذا النظام الجديد، فإن الناس في تشويش، يخرجون فائتَهم من الأحداث شهر كامل، لا يمكنهم مواكبة الأخبار من بين كل ما يحدث، مصابون بالاغتراب، يعيشون أمواتًا، مغيّبون، وذلك ما تريده النخبة، كي ينطفئ الشغف بالسياسات ومتابعتها، وتختفي الرموز السياسية، كيف يمكن للمرء أن يتكلم بثقة وهو يشعر بأن شيئًا ما يفوته، كيف يثق بأتباعه وبالغد وهو يعلم أنه لن يواكب أفكارهم المتسارعة، صدقني هذه التداعيات ليست إلا جزءًا جديدًا من سيناريوهات سياسية مكتوبة ومحفوظة، في كل مرة تتكرر بجرأة أكبر، خطة لإنشاء دولة وحيدة الفكر، وحيدة التوجه، ونظام عالمي يُنتخب فيه رئيس واحد للعالم أجمع، حدث مخطط له وينتظرونه منذ عقود.

- هل تريد أن تخبرني أن طوال هذا المدة والجهل والخوف بين الناس جدرانًا، ولم يحدث أن خرج لهم من ينادي بالحق فيهم، لا أعتقد، ثم ما

المانع في أن يكون للعالم حكومة واحدة، أليس ذلك أفضل، وهو شيء يبيد الحروب ويحفظ السلام؟

- بالعكس.. إن ما يقتل الحروب هو التحضر والتثقف وتقبل الغير، وما يشعلها هو محاولات السيطرة وفرض القوة والاستبداد، إن طرقهم الملتوية هي التي تخلق النزاعات الداخلية وتدعم التطرف وتوجده من أجل فرض السيطرة، هذه هي حيلتهم الكبرى، كنا شعبًا واحدًا، فقسمونا إلى أقسام ثلاث، ومع الوقت سوف يصبح هناك طبقية بينهم، نزاعات وصراع، صراع على من يتفوق على الآخر، ليأتي من يعين نفسه حاكمًا بحجة فض النزاع، هذه هي عقيدة الصدمة يا بني، كل الأدلة تشير أن هناك مجموعة تسيطر، ولا تريد مصلحة على الأرض إلا لأتباعها، وما يخالفها في الانتماء أو الأفكار فلا وجود له، بغض النظر إن كانت هذه الأفكار صحيحة أم خاطئة، ولكنها مجرد لعبة سخيفة يمارسونها، ولكن من قال لك إنه ليس هناك من ينادي بالحق؟! ومن قال إنه ليس هناك أمل؟ ينطوي في هذا العالم النور مثلما ينطوي الظلام، وأقوى أسلحة الخير هي الأفكار؛ الكتب والمقالات والأفلام والرسوم والأغاني، رغم أنهم يشهرون ما يريدون إشهاره، ويسخّرون جوائزهم الكبرى للأعمال التي تتوافق مع مبادئهم وتُروج لها، ليس لجودة العمل، بل لنوع الأفكار التي يقدمها، أعمال تهين المقدسات الدينية، وتجرح الشعور العام باسم حرية الإبداع، وحرية التعبير، حتى أصبح هناك قطاع كبير من المثقفين دأبوا للدفاع عن تلك الأعمال الغصة فكريًا، ولكن دائمًا يصادف يوم أن يأخذ قاعدة الشهرة من يستحق، ويجبر الجميع على الاعتراف به، فيخرج مثلًا كتاب يلفت أنظار الشعوب، ويدعمه الناس، فلا يقدرون

على إيقافه، سواء بمنعه أو تجاهله أو التنكيل بسمعة كاتبه أو حتى قتله، فالأفكار طلقات لا يمكن إيقافها، شعلة نور صغيرة تبدد الظلام، وتنير الطريق لأتباعها، العديد من الأدباء والمفكرين يطرقون ذلك الحائط، وذات يوم سوف يصبح هذا الحاجز الفكري هش لأبعد الحدود، ليخرج من يخبط هذا الحائط طرقة أخيرة فيفجر ثورة وعي جديدة تعيد للعالم توازنه بعد أن كاد ينقلب.

وعمّ صمت ثقيل، فالتقطت آذاني ذلك الصوت الضئيل، صوت خافت يخرج من مبنى النيلا، صوت يشبه أنين العزف، قضبت حاجباي، نظرتُ نحو نافذة جدي، وحاولت التركيز، ولكن تحدث عم رمزي، مستأذنًا بالذهاب:

- لقد تأخرت، عليّ أن أذهب الآن، سلّم لي على جدك.

ورحل برفقة كمانه الصغير، وتركني وحيدًا أتتبع ذلك الصوت الغريب.

6

من غرفة جدي، وخلف الباب المغلق، يتسلل الصوت بخفّة إلى أركان الفيلا، إلى أعماق مسامعي، صوت عزف عذب، هادئ، عزف بيانو، ولحن أعرفه، ولكنّي استغرقت وقتًا حتّى أتعرف عليه، رغم أنه كان متناسقًا جدًا، ومتقنًا جدًا، إنها تلك الأغنية القديمة "وحشتيني" لعمرو دياب، الآن التقطت شفاهي كلماتها، ورددت "سنين شايفك في أحلامي بنادي عليكِ ضميني.. ليالي كنت مش عايش ومستنيكِ تحييني" سحب العزف أصابعي، ففتحت مقبض الباب القديم، ودخلت خطوة واحدة، وجدي يعطيني ظهره، لا يعبأ بدخولي، أو.. ربما لا يشعر بي أصلًا، يعزف اللحن، وتتمايل معه رأسه، بل ظهره كاملًا، للأمام وللخلف، لليمين ولليسار، يعزف بنهم، بجوع، بتضور، وكأن يداه تتحركان فوق جسد امرأة يعشقها، يشتهيها، يشتاق إليها، وتشتاق إليه، فتعطيه كل ما عندها، يخرج من لحن ويدخل في الثاني، بلا هوادة "قصاد عيني"، "تملي معاك"، "أنا عايش"، "خليك فاكرني".

ونظرت للدولاب، الذي كان لأول مرة مفتوحًا، مستفرغًا كل ما في أمعائه، أشلاء من الأشياء تملأ أرض الغرفة، والسرير، كنت أعتقد أن هذا الدولاب على الأقل به مقتنيات ثمينة، ولكن كل ما رأيته هو أشياء أشبه بالقمامة، ياللجنون!! عبوات حلوى فارغة، كيس أحمر باسم "چوليو

أو أزرق باسم "قلبظ" وأسطوانات عديدة لألعاب قديمة جدًا "بيبسي مان"، "تيكن"، "كراش"، "مصارعة حرة"، "كرة قدم" وأوراق لعب عديدة مرسوم عليها وحوش ومسوخ ومكتوب على ظهرها "يوغي" أو صور صغيرة لمصارعين قدام، "أندرتيكر" "شون مايكلز" "جون سينا" وغيرهم، عربات سباق صغيرة محطمة، وبلابل، كروت شحن، مجموعة كرات زجاجية صغيرة في عبوات زجاجية، وصورة لفتاة شقراء تغني، مكتوب جوارها كلمة "Hannah" بحروف ذهبية مضيئة، وأسفلها كلمة "Montana" بلون بنفسجي، وصورة لمجموعة شباب يقفزون في الهواء "High school musical" ومجموعة روايات صغيرة من سلسلة ما وراء الطبيعة، وغيرها من الكتب، والقصص المصورة، مجموعة صور وشرائط لمغنيين أجانب مثل بوب مارلي، ولينكين بارك، ومايكل جاكسون، وريهانا، وصور وشرائط لمغنيين عرب مثل عمرو دياب، وشيرين، وتامر حسني، وبهاء سلطان، ومحمد فؤاد، العديد من الأشياء التي لا أفهمها، والتي لا أملك وقتًا لوصفها، كانت الغرفة في حالة فوضى عارمة، وجدي وسط كل ذلك يستمر في العزف، ألحان لا أعرفها، كلها عذبة وحزينة، وأمامه هاتف قديم، شاشته مكسورة، وبه صورة سيلفي لجدي في شبابه مع فتاة جميلة، ليست جدتي، أعرف شكل جدتي جيدًا، بل فتاة أخرى، ملامحها تشبه رغد قليلًا، لها نفس الابتسامة الأخاذة وتسريحة الشعر، وضعت كفّي على كتف جدي، فانتظر حتّى ينهي اللحن، ثم نظر تجاهي، فقلت:

- أخيرًا سمعتك تعزف، ما هذا الجمال؟!

وأجاب وكأنه طفل يبرر فعلته:

- حاولت أن أمنع نفسي، ولكن أصابعي في الليل تتحرك مثل الموتى الأحياء، وكلما سمعت لحنًا، أصبحت كمدمن يواجه أعراض الانسحاب، واليوم بعزف رمزي، ثم صديقتك، لقد فجرت منجم الذكريات في رأسي، ذكريات أليمة، ذكريات صارخة، كم تشبهها!

أمسكتُ هذا الهاتف القديم:

- تقصد هذه الحلوة التي تعزف لصورتها؟ لا تحاول أن تخبرني أنها جدتي، يبدو أنها واحدة من معشوقاتك، ولكن معك حق، فيها من رغد كثيرًا، يبدو أن ذوقنا واحد، ولكن صديقتك أجمل.

- اسمها شيرين، شيرين خميس، جميلة، وصعبة المنال، لم يتوقع أحد أبدًا أن أظفر بها، ولا أنا، كنت فقط أحلم بها، أتحدث عنها من بعيد، وذات يوم، قلت لم لا؟! تجرأت، وتحديت صمتي المعتاد، في ميدان الجامعة. وفي شتاء يناير، ناديتها، كالهائم، لم أعرف ماذا أقول، ولم أخطط لأي شيء، ولكنّي فقط ناديتها، نظر الجميع نحوي، وقالو هذا المجنون، هذا الأبله، ماذا يفعل؟! هل يظن أنّه سينال قلبها بأغانيه وألحانه؟! خشيت أن تحرجني، أن تدير وجهها وتغرب بعيدًا، مثلما تفعل مع الكل، ولكنّها رمقتني بتمنٍّ، وكأنها تهمس "أخيرًا، لقد انتظرت ندائك طويلا" عشنا أيامًا سعيدة، أيامًا ملأها الأمل والتطلّع، ولكن.. غبي، أنا غبي، ضيعتها من يدي، مع كل هذا الحب، وكل هذا العشق، تخيّل أنني لم أنسها حتى الآن، ولكن كم كنت مستهترًا، عندما امتلكتها، لم أهتم بها أبدا، وبعد سنوات، افترقنا، سُلبت مني، فسُلبت منّي روحي، أصبت بإحباط، ومع إلحاح أمي تزوجت جارتنا القديمة، جدّتك، بُشرى النحّاس، ظننتُ أن الزمن سينسيني، ولكني أصبت بالجنون، (وشرع يمسك نفسه عن

البكاء، فيخرج صوته متحشرجًا مبحوحًا) كل شيء يذكرني بها، فأقول كيف ضاعت من يدي، كيف سلبت منّي؟؟ كنت في غفلة! وعندما فقت منها، فات الأوان، اسمع يا بني! الفرصة تسنح مرّة واحدة، فكن مستعدًا لها، وإذا جاءت لك، لا تضيعها أبدًا.

- حسنًا يا جدي، فقط تمالك أعصابك، تعال.. يجب أن تنام الآن.

سحبته من كفيه، فضيت له مساحة فارغة في الفراش الطافح بالكراكيب، وجمعت كل ما وقعت عليه عيني في الدولاب، بسرعة وعشوائية، كنت أريد أن أخفيها عنه، حتّى إذا استيقظ لا يدخل في تلك الحالة من جديد، رتبت الغرفة، ثم نظرت إليه، كان يغط في نوم عميق، مثل طفل صغير، فتنفست الصعداء، ثم أطفأت النور، وأغلقت الباب بهدوء، ورحلت.

الفصـل السـابع

1

بقي يومين، لا أعرف إن كان ذلك سيكفي أن أحكي لكم ما هو آت، عندما أندمج في الكتابة، فتأخذني التفاصيل إلى تفاصيل أخرى، وأجد الكلمات تتراصّ من تلقاء نفسها جنبًا إلى جنب، ويمر الوقت في غفلة، لا أريد أن أتعمق هكذا، سوف أحاول أن أتجنب ذلك قدر الإمكان، نظرًا لضيق الوقت، فما هو آت به الكثير من الأشياء التي يجب أن أحكيها، فلا سبيل إلا أن أحكيها.

مرّ أكثر من أسبوعين حتّى عثرت أخيرًا على مشترٍ للشقة، حاول أن يفاصل في مبلغ كبير، بحجة أنني لن أجد مشترٍ بسهولةٍ بعد تفعيل النظام المالي الجديد، فحتّى الأثرياء ليس لديهم ما يكفي لمخاطرة الشراء، وأخبرني أنّه سيدفع قيمتها كاملة بالذهب، لأن ليس لديه ما يكفي من العملات الإلكترونية، وأنني غالبًا لن أجد المشتري الذي يمتلك ما يكفي من العملات الإلكترونية، وكان معه حق، فاوضته قليلًا، بحجة أن تحويل المبلغ في الوقت الحالي من ذهب إلى عملات إلكترونية شيء صعب، وربما يخسر كثيرًا، واستقر على مبلغ مناسب، ثم أغلقت المكالمة بحجة أنني سوف أفكّر، واتصلت برغد، قلت لها إن المبلغ الذي أمتلكه لسد الدين هو من سبائك الذهب، فهل يقبل صاحب المقهى أن ندفع له المبلغ كاملًا

بالذهب؟ وقالت بدون تفكير "طبعًا يقبل، هل سيتشرّط أصلًا؟! يكفي أنه سيأخذ أمواله التي لو كانت معه من البداية لخسرها" اتصلت بالمشتري مرة أخرى "قبلتُ العرض" قُلت، وقال "على بركة الله".

كم أفتقد ماريو، وتويا أيضًا، لم أكلمها من فترة طويلة، ولكنها ترفض الحديث، غاضبة منّى، كنت أعبُر من جوار الاستراحة فأشير إليها، ولكنها دائمًا تدير وجهها، غاضبة منّي، لأنها ترى أن رغد مجرد نصابة تريد أن تسرقني، والحقيقة أنها تسرقني أنا منها، ولا أريد أن يستمر هذا الخصام بيننا، ولكن.. ليس هناك وقت اليوم لفضّ النزاعات، ذهبت إلى المشتري، في مقهى قريب من الشقة، واتصلت برغد لتحضر على نفس المقهى، ولكن بعد موعدي مع الرجل بساعتين، هكذا آخذ منه المبلغ وأعطيه لها بعد أن يذهب، لا داعي للتأجيل يومًا واحدًا، فبعد يومين فقط سوف تدخل مجموعة رغد في السبات، ومعها جدي، وعم رمزي.

في الموعد المحدد جاء الرجل، كان محترمًا جدًا، لم يأخذ اللقاء أكثر من ساعة، تبادلنا العقود، وكتبنا عقدًا إلكترونيًا، أعطاني المبلغ، سبيكتين من الذهب، والباقي تم تحويله على حسابي عملات إلكترونية، بقي حوالي ساعة على مجيء رغد، جعلت أفكر، اتخذت مئة قرار وعكسهم، هل أخبرها أنني أحبها؟ وكيف؟ هل أطلبها للزواج؟ أم أؤجل الأمر قليلًا؟ وما الفائدة من التأجيل! لا أريد أن أضيعها، تذكرت نصيحة جدي، حسنًا، سوف أفعل، سوف أخبرها أنني أحبها، وأنني أريد أن أتزوجها، وأنني أحببتها مذ رأيتها نائمة في صرح السبات.

جنون! نعم، إنه جنون، ولكنّه حدث، وفسريه كما شئتِ، ربما لأنّك تشبهين حبيبة جدي القديمة، وأنا أشبهه، وذوقي مثل ذوقه، أو ربما

لذكرى طفولتنا، وكل ثانية في الطفولة تساهم بشكل أو بآخر في تكوين البالغ منّا، إنّه تأثير الفراشة يا عزيزتي، وأنتِ الفراشة الصغيرة التي شكّلت بجناحها الصغير إعصارًا بداخلي، أنتِ لستِ مخطوبة على أي حال، لم أر في يدك أي خاتم، حمدًا لله أننا لم نتخلص من عادة ارتداء الخواتم بعد، ولكن!! ماذا لو كنتِ مرتبطة! هل أنتِ مرتبطة؟ أو قلبك معلق بأحدهم، ولكن لا أظن، أتذكرين تلك الرقصة، إنها دليل على أنّك لا تمانعين، وأنّه لو كان هناك من يشغل قلبك، لما رأيت في عينيك هذا الشغف وأنتِ تراقصينني، وكأنّك سندريلا تراقص الأمير، الأمير الذي سيخلّصها من سطوة زوجة أبيها الشريرة، أو في هذه الحالة.. من سطوة صاحب المقهى، جعلتُ أفكّر وأفكّر، وفجأة، رأيتها واقفة أمامي، صُدِمت، سلّمت عليها، ثم طلبت لها ما تشربه، وبقيت صامتًا لأكثر من عشر دقائق، ربما ارتبكت من كثرة التفكير، فاقشعر جسدي، وتجمد لساني قليلًا، وفي النهاية أعطيت لها السبيكتين، قلت:

- خذي، هذه الحقيبة بها سبيكتين، هذا يساوي أكثر من المبلغ المطلوب منكِ، سددي ما عليك، ثم طمئنينني.

وجعلت تشكرني كثيرًا، وكأنني أنقذتها من غرق في وسط المحيط:

- أشكرك يا دكتور ياسين، أشكرك جدًا، أنت طيب وشهم، أمثالك أقلاء في هذا الزمان، وسوف أعمل جاهدة لأسدد لك هذا الدين في أقرب وقت، ويمكنك أن تطلب أي شيء وسوف ألبيه لك، أيًا كان.

كانت اللحظة المناسبة، نظرتُ إلى عينيها المتقدتين، فرصة ذهبية للتسديد، المرمى فارغ تمامًا، والكرة في ملعبي، عليّ فقط أن أستعد، وأسدد، ولكني لا أجيد اللعب:

- آاا.. لا أريد منكِ شيء البتة.. ربما فقط أحتاج أن أخبركِ بشيء هام، ولكن.. اذهبي الآن، ردّي ما عليك، وسوف نتحدث لاحقًا.

ركلة ضائعة بالطبع، لكن لازال هناك وقت في المباراة، ولا مانع من التمهيد.

* * *

مرّ اليوم التالي ولم تكلمنِ أبدًا، أمضيت اليوم كله أفكر هل أتصل؟ أم أنتظر؟ أضيع وقتي بالقراءة، بمراعاة النحل، بالجلوس في دكان النحل، أي شيء، إلى أن أسدل الليل عباءته، فتأملت النجوم حتّى زارني النوم ورحبت به، والغريب أنني استيقظت متأخرًا، اليوم موعد سبات رغد، بعد ساعات معدودة، فتحت شاشة الهاتف، فوجدت رسالة نصية، منها، مكتوب "قابلني في الثالثة عصرًا أمام صرح السبات".

نظرت إلى الساعة الرقمية، إنها الثالثة عصرًا، يا ربّي.. الطريق طويل، قفزت من السرير، ارتديت ملابسي في دقائق، طلبت سيارة، ونزلت مهرولا، نظرت إلى الهاتف فوجدت أنها اتصلت مرات عديدة ولم أسمع، فاتصلتُ:

- أين أنتَ؟

قالت منزعجة، وأجبتها بصوت ناعس:

- آسف، كنت نائمًا، أنا قادم في الطريق.

- أرجوك تعال بسرعة، سوف أدخل السبات بعد دقائق.

- حسنًا، لا تقلقي.

ضبطت السيارة على أقصى سرعة، ولمّا وصلت، وجدتها جالسة تنتظر على أحد المقاعد، ولمّا رأتني وقفت، ثم.. بكت، شرعت تبكي وتتنهد، احتضنتها، حتّى تهدأ، وأنا لا أفهم شيئًا، أمسكتها من كتفيها، نظرت في

عيناها، وقالت باكية:

- لقد سُرقت السبائك، سرقوها منّي، أنا متأكدة أن لم يفعلها أحد سواه، أمين الكلب، كان يعرف أنّهما معي، وكنت في انتظاره في المقهى، تأخر كثيرًا وفجأة اختفت الحقيبة، وبالصدفة الكاميرات كانت معطلة، ماذا يعني ذلك!!

كانت شريحتها تحدث إنذارات مزعجة، تلك الشريحة الغبية تصرخ وتضيء أسفل الجلد وكأن الإنسان أصبح مجرد سخان، أو فرن بالكهرباء ينذر بانتهاء الوقت، لقد حان موعد سباتها، وجاء اثنان ليأخذاها، أحدهما كان ينظر في شاشته ويقول بسماجة:

- آنسة رغد، حان موعد سباتك، تفضلي معنا لو سمحتِ.

فتبعتهما كسجين يتجه باستسلام نحو ساحة الإعدام، قبل أن تذهب قالت لي:

- سوف أعيد لك أموالك بأي طريقة، لا تقلق، اعرف أنّك كنت تحاول مساعدتي، أنا آسفة.

ثم تدير وجهها وتمشي وعبر ذلك الباب اللعين، تدخل لتختفي شهرًا كاملاً.

2

- تمثيلية سخيفة، قلت لك إنها نصّابة وأنت لم تصدقن.

- تويا، أرجوكِ كفّي عن قول ذلك.

- إنها الحقيقة!

نظرت لها بغضب شديد، ولكن قسمات وجهها تعبّر عن غضب أكبر، كنّا في الاستراحة كعادتنا، مررت عليها وأنا في طريق العودة، حيث كنت أحتاج إلى من أحكي معه، أعرف أن تويا سوف تضايقني بالكلام، ولكنّها حتمًا ستكون أرحم من جدي، أصبحت ردود أفعاله غير متوقعة أبدًا، ولكنّه بلا شك سوف يغضب غضبًا شديدًا إن أدرك أنني أضعت ثمن الشقّة هباء.. أردفت تويا:

- وماذا ستفعل يا خدوم، هل ستعطيها المبلغ مرة أخرى؟!

- لا أعرف، أفكّر في شيء ما..

- لا فائدة منك، سوف أذهب لأستقبل أبي، سيخرج بعد قليل من السبات، وهو مريض، ماذا ستفعل أنت، هل ستذهب لماريو؟

- نعم، ولنتقابل مساء اليوم عنده.

- سأحاول.

* * *

في بيت ماريو.. كنت أجلس على مقعد حانيًا ظهري ورأسي إلى الأسفل،

ملتقطًا في يدي كتابًا كان أمامي، أعبث به، وأقلّب صفحاته كأوراق اللعب إلي اليمين ثم إلى اليسار، على يميني ماريو، مشغول بتصليح سيّد، الروبوت المرقّع الذي لم يحيَ مذ رأيته، وعلى اليسار كانت، تويا، ترتدي نظارة الواقع الافتراضي وتلعب لعبة ما، ربما لعبة ملاكمة أو قتال، تفرغ طاقتها فيها، أنظر لها، أتأملها وهي تتحرك، أعترف أنها مثيرة، جميلة رغم صغر سنها، تشبه الممثلات النحيفات الجميلات، اللائي وبرغم نحافتهن يظهر جسدهن أنوثة لا بأس بها، ولكن.. لا، قلبي يرفض الفكرة، إنها رغد، شعور بداخلي يقول إنها صادقة، وإنها تحتاج إلى من يعتقها من عبوديتها، خلعت تويا نظّارتها فجأة، وتحدثت بلهجة غاضبة، وكأنها كانت تفكّر في الأمر بصمت طوال الوقت، ثم فجأة خرجت عن هدوئها، موجهة كلامها إلى ماريو:

– أنت من ساعده على الوصول إلى تلك الفتاة التي سرقت أمواله، والآن تلتزم الصمت، ولا تقول شيئًا، لم لا تقنعه أنّها مجرّد نصّابة؟!

ويجيب ماريو دون أن ينظر وهو مشغول بما في يده:

– لا أريد أن أظلمها، ربما صاحب المقهى سرقها فعلا، هو الوحيد الذي يعرف ما معها، وهو الوحيد القادر على إيقاف الكاميرات، ياسين يقول إنه رآه يعاملها بقلّة ذوق، أي أن فعلاً مثل هذا قد يحدث منه.

– أرأيتِ، هذا ما أتحدث عنه.

قلت ذلك في وجه تويا، ولكن باغتني ماريو بقوله:

– وهذا لا ينفي احتمال أن تكون نصّابة فعلًا يا ياسين، وحتّى لو كان احتمال ضعيف.

ملأ اليأس قسمات وجهي، ثم فكّرت كثيرًا، كنت أريد أن أقول لهم عن

تلك الفكرة التي تدور برأسي، ولكن ترددت، جعلت أقلّب في الكتاب، أراجع الفكرة بيني وبين نفسي ألف مرة، جلست تويا إلى جواري، اقتربت مني بدرجة كبيرة، فأبعدت نفسي، فقامت مرّة أخرى غاضبة، كادت تستأنف اللعب، ولكن صاح ماريو فجأة:

- سيداتي سادتي، أقدم لكم، الروبوت سيّد، سلّم عليهم يا سيد.

وبدأ الروبوت يتحرّك نحوي، لونه أبيض، وجسده انسيابي يشبه جسد إنسان قصير، بلا قدمين، بل مستطيل تزداد مساحته اتساعًا إلى الأسفل ويمشي على الأرض بعجلات صغيرة، ووجهه البيضاوي به شاشة دائرية سوداء ترسم ملامح مضيئة زرقاء، وله أذرع سوداء، أحدهم أطول من الآخر بشكل مضحك، لأنّه من قطع الغيار، والمضحك أكثر أنّه كان يرتدي كرافات أزرق وضعها له ماريو لمّا انتهى من تصليحه، مدّ الروبوت يده نحوي، وقال:

- دكتور ياسين، كيف حالك.

لولا شكله المضحك لظننت أنّه رجل طبيعي يتكلّم، ملامحه سعيدة، وحاجباه مرفوعين وكأنه مندهش، بالطبع عرف اسمي من ترددات الشريحة، أدرك هذا، وبرغم ذلك فرحت أنّه عرف اسمي وناداني به، مددت يدي أرد السلام:

- أنا بخير.

انتظر قليلًا، ثم أومأ برأسه وعلى ملامحه ضحكة بلهاء، ثم تركني واتجه نحو تويا:

- تويا.. كيف حالك.

سلّمت عليه بدلال وقالت:

- بخير، وأنت؟

- أنا بخير، أنت جميلة اليوم، أحب اللون الأصفر.

كانت ترتدي "تيشرت" أصفر، و"شورت" قصير بلون سماوي، ملأ ملامحها الكسوف، وشكرته على المجاملة، ثم ناداه ماريو وقال:

- والآن اذهب ورتّب هذه الكتب المبعثرة.

- حاضر.

قال بلطف، وابتسامة بلهاء، وبدأ يرتب الكتب، ناديته لأعطيه الكتاب الذي كنت أمسكه:

- خذ هذا.

فأخذه وشكرني وتابع عمله، بقينا قليلًا نتفرج عليه بفخر وهو يعمل، يخرج كتابًا من مكان ويضيفه في المكان الصحيح، حتّى مللنا، فتحدثت نازعًا جذور ذلك الصمت:

- ماريو، عندي فكرة ما، ولن يستطيع أحد أن يساعدني عليها سواك.

جلس منتبها، وكذلك تويا، وقلت:

- هل بمكنك اختراق حساب ذلك الرجل، أستاذ أمين صاحب المقهى، قالت رغد أن العقد كان إلكترونيًا، إذا دخلنا وعثرنا عليه، فهذا يعني أنّها تقول الحقيقة، وإن أمكن وقتها أن نمسح هذا العقد تمامًا.

- ماذا تقول، بالطبع لن تفعلا جريمة مثل تلك.

قالت تويا معترضة وبنبرة غاضبة، وأضاف ماريو:

- ياسين إن وجود العقد لا يؤكد أنّه السارق.

- حتّى ولو كان الرجل لم يسرق السبائك، وهو أمر ضعيف الاحتمال إن كان العقد موجودًا، هل يرضيك أن يستعبدها هكذا، دعك من هذا، ألم تمسح قيم كل الأموال القديمة، ما أقرضه ذلك الرجل لعائلة رغد كان قبل النظام الجديد، من المفترض أن تكون هذه الأموال ممسوحة أصلًا.

- ربّما.. ولكن ذلك أمر صعب للغاية وقد أعجز عن تنفيذه إن كان الحساب محصّنًا.

- لا مانع من المحاولة، أنا أثق في قدراتك.

وصاحت تويا قائلة:

- علام تتفقان.. إنها جريمة ولن أشارككما فيها، عن إذنكما.

ورحلت، حاولنا إيقافها، ناديناها أكثر من مرّة، لكنّها لم تأبه، ولم تلتفت.

3

على لوح زجاجي كنت ألعب الشطرنج مع الروبوت "سيّد"؛ كان اللوح يظهر القطع ثلاثية الأبعاد بأشكال مميزة وكأنها جنود حقيقية تتحرك متأهبة للقتال، تتحرك القطع بمجرد الأمر، وهناك تأثيرات مثيرة لقتل الجنود، كان ماريو يجلس أمام حاسوبه يحاول تنفيذ ما طلبته منه، قال:

- حسنًا، لنتبع الطريقة الكلاسيكية، أرسلت له رابطًا، إن دخل فيه دخلنا نحن أيضًا في حسابه، نفتحه من المتصفح الآمن حتّى لا يقتفي أثرنا أحد، ولن يعرف حتّى أن أحدًا دخل إلى حسابه، نتفقد البيانات سريعًا قبل أن يخرج، نمسح ما نريد مسحه، ثم نخرج بأمان، ولكن علينا فقط أن ننتظر حتّى يفتحه، وأن نبقى متيقظين.

* * *

في صباح اليوم التالي كان كلّ منّا نائمًا، أنا على الأريكة، وهو على المقعد في مكانه، وحتّى الروبوت سيّد ينام وهو واقف بطريقة مضحكة، وفجأة يرنّ هاتفي، فنستيقظ ثلاثتنا في فزع، سأل ماريو: مَن؟

وأجبته مشدوها: تويا!!!

غريب جدًا، ألم تكن غاضبة بالأمس، أجبتها فقالت:

- ياسين، تعال بسرعة أرجوك، أبي مريض جدًا.

- حسنًا، سأكون عندك حالًا.

أنهيت المكالمة، وأردفتُ محدثًا ماريو:

- تقول إن عم عز مريض، سوف أذهب لأكشف عليه، ابق أنت هنا مع الجهاز، وإن احتجتك سأتصل بك.

* * *

وسريعًا ذهبت إليها، بيتهم قريب جدًا من الاستراحة، أتممت فحصي، وقلت لتويا:

- مشاكل في الضغط، وربما ضعف في عضلات القلب، يجب أن يجري أشعّة، وأن يذهب إلى طبيب متخصص في مشاكل القلب.

وشكرتني كثيرًا، كانت قلقة جدًا على أبيها، أما أنا، فقد تفاقمت الشكوك في قلبي أكثر وأكثر، عن هذا النظام الذي يزرع مرضًا في قلوب الناس، أخذت الطريق كلّه نحو بيت ماريو وأنا أفكّر في الأمر، ولكن ما قاله قد أنساني كل شيء.

- لقد فتح الرابط بالفعل، والحقيقة أنني عثرت على عقود عدّة، من ضمنهم عقد باسم رغد، بنفس قيمة المبلغ الذي أخبرتك هي به، ومعي هنا نسخة منه (أشار على الحاسوب، وأردف بصوت يملؤه الفخر) أمّا النسخة الأصلية، فلم يعد لها وجود في أي مكان.

ليس باستطاعتي أن أحكي لكم كم فرحت، شكرت ماريو حوالي مئة مرّة، مثل طفل اشترى له والده لعبة يتمناها، رغم ذلك مرّ هذا الشهر بملل وبطء شديدين، أبيع في دكان العسل تارة، أقرأ تارة، أجلس مع ماريو، أو ألعب، لم نخبر تويا بما فعلنا، ولكنّها تعرف جيدًا، من نظرات أعيننا، ومن كلامنا الغامض، والحقيقة أنها هي التي أبعدت نفسها عنّا تدريجيًا، كنت أفكّر كثيرًا، هل اكتشف صاحب المقهى ما فعلناه، ولو اكتشف، ماذا سيفعل؟ هل يعرف بيتهم؟؟ لا أظن، وحتّى لو كان يعرف، ماذا قد يفعل؟! مع نظام الشرائح المتبعة، صعب جدًا أن تتم جريمة كاملة، جريمة مثل

تلك التي فعلها في المقهى عندما كانت كل الظروف مهيأة، فليخبط رأسه في أغلظ حائط إذًا، ما يشغل بالي أكثر.. هو ذلك الذي سأقوله لرغد عندما تخرج، في الدقائق القليلة التي تفصل بين خروجها ودخولي -هذا إن رأيتها- وكان يجب أن أراها، وبعد مرور ذلك الشهر اللعين ذهبت لانتظارها، اتصلت أكثر من مرة لأتأكد إن كانت متاحة أم لم تخرج بعد من السبات، ولمّا كانت متاحة، جعلت أبحث بتركيز كبير بين الزحام، حتّى عثرت عليها أخيرًا، هائمة بين الناس، ناديتها فانتبهت، وجاءت مسرعة، وقفنا في ركن هادئ، وأخبرتها بكل شيء، قلت:

- رغد، لقد أنهيت الموضوع، العقد الذي يهددك به ذلك الرجل، مسحته تمامًا، أهم شيء ألا تجعليه يراك أبدًا بعد اليوم.

- ماذا تقصد؟

سألتني، بعينين يملأهما الشغف والحيرة، وأجبتها:

- أقصد عقد سد الدين الذي كان بينكم، لدي صديق محترف في أمور الاختراق، اخترق حسابات أستاذ أمين، ومسح هذا العقد تمامًا، لم يعد له وجود في أي مكان، أنا متأكد، لا تقلقي.

حاولت أن تقول شيئًا فتلعثمت، كانت مصدومة، ولكن في قسمات وجهها سعادة ودهشة بالغة، لم أترك لها أصلا فرصة للكلام، أردفت سريعًا:

- اسمعي يا رغد، ليس هناك وقت للحديث طويلًا، هناك شيء آخر لا يقل أهمية يجب أن أخبرك به.

هزت رأسها في فضول، خروجها من السبات للتو جعلها في حالة خمول وهدوء بعض الشيء، أعطاني هذا جرأة أن أتحدث، فحتّى لو لم يعجبها كلامي، لن يكون عندها طاقة لتوبخني، قلت هذا في نفسي وصدّقته،

وأطلقت الكلمات من فمي دفعة واحدة:

- مذ رايتك يا رغد وأنا اشعر من أعماق قلبي أنني أحبك، قسمات وجهك، تحركاتك، ضحكتك، حتّى أصابع كفّيك، كل شيء، أعرف أن هذا جاء سريعًا، متهورًا، ولكنك لم تسمعي الأكثر تهورًا بعد، في الحقيقة، أنا أطلب الزواج منكِ، أرجوكِ لا تقولي أي شيء الآن، أعرف أنّكِ تحتاجين وقتًا للتفكير، وأعرف أنني لن أطيق الانتظار، لذلك فهذا أنسب وقت لأقولها، أمامك الآن شهر كامل للتفكير، وأمامي بضع ساعات حتّى أسمع الرد، فكّري حتّى أخرج، إما أراكِ أو لا أراكِ، والآن اعذريني عليّ أن أذهب.

وانطلقت هاربًا، اختفيت من كل مكان، جلست في حمام الرجال، أغلقت هاتفي، وجعلت ألتقط أنفاسي المتسارعة، أسمع ضربات قلبي وكأنه قفز من قفصي الصدري إلى ما بين أذناي، ينبض هناك، فيتردد صداه داخل رأسي ويحدث دويًا، ساعات حتّى حان موعدي، ورنّت شريحتي، فانطلقت بين الهائمين، إلى الكبسولة التي كانت تحمل رائحتها، فأحتضنها شهرًا كاملًا.

4

فتحت عيني ولازال شعور التوتر يملؤني، شهر كامل وأنا على هذا الحال، لم تقل درجة ترقبي، ولم يقل اضطرابي، ولكن تظاهرتُ بالسكينة، وخرجت إلى الساحة الواسعة أبحث عنها، وأنا فاقد للأمل بنسبة كبيرة، لكن لم يستغرق بحثي دقائق معدودة، حيث كانت بنفس المكان تمامًا، وكأنها لم تتحرك أبدأ، لكن هذه المرة كانت ترتدي فستانًا أحمر قصيرًا، وتضع أحمر شفاه مثير، ولمّا رأتني ابتسمت، ثم أومأت برأسها في خجل، ووسط أعين الناس وتحركاتهم هرولت إليها، احتضنتها حتّى حملتها عن الأرض حملًا، متناسيًا الساحة وما فيها.

****

في الفيلا، كالعادة يجلس جدي مع عم رمزي ويدخنان، وكان عليّ أن أفاتحه في موضوع الزواج، جلست إلى جوارهما، وبدون مقدمات قُلت:

- جدي، لقد طلبت من رغد الزواج ووافقت، وسوف نعيش هنا في الفيلا معك.

هنّأني عم رمزي، قال:

- ألف ألف مبروك يا بني، عشنا لنرى أحفادنا تتزوج، أسعد الله أيامك.

وظهر على جدي ملامح الفرحة، كان فخورًا، وقال:

- ربنا يتمم بخير، ومتى تنويان ذلك؟

- غالبا بعد ثلاثة أشهر، آخر الشهر الجاري رغد تدخل السبات معكما، وبعدها يكون دوري، وبعد ذلك الفرح.

- أليس سريعًا، لم لا تتأنّى؟!

سأل جدي، وأجبته:

- ولم أتأنّى، سنتزوج ببساطة، هذا كل شيء، ليس الزواج بهذا التعقيد، عقّده الناس مع الوقت، تعرف أن الزواج ليس بالمقتنيات، بل بالتوافق، ونحن على وفاق مذ تقابلنا، لا نحتاج إلا للضروريات، وما غير ذلك يبعّد الوقت ويبعّد المسافات، هل نسيت أن رغد تشبه التي كنت تحبها في شبابك، ألم تقل لي لا تضيع الفرصة، ثم أنها سترعاك أثناء غيابي، لأنّها في نفس مجموعتك، وذاك سبب آخر يجعلني أتعجل.

كنت في غاية الحماس لهذا القرار، لم أتخيل أبدًا ما كان ينتظرني، وقال جدي:

- افعل ما شئت.

كلمته المعتادة، وأضاف عم رمزي بلهجة ساخرة:

- وأي فتاة هذه التي تشبه التي كان يحبها جدّك في شبابه، هه هه هه، ألم يقل لك جدّك إنه كان يحب شخصية كرتونية اسمها دامو ستحيل هه هه هه.

جعل يضحك كثيرًا، حتّى أخذ يسعل من شدة الضحك، وجدي يضحك ساخرًا وعلى قسمات وجهه ضيق وإحراج شديدين، حتى أن وجهه احمرّ من شدة الخجل، ثم قال وهو يسخر من عم رمزي:

- ها ها، أخبرني ومَن الذي كان يشعر بالغيرة على ران من سينشي؟

- ماذا تقولان، كفّا عن هذا.

لم يُعرني أحد أي اهتمام، جعلا يسخران من بعضهما بطريقة لا أفهمها،

فأشحت بكفي وأدرت وجهي ورحلت مبتعدًا، تركتهما وضجيجهما يملأ المكان، يتشاجران من خلفي مثل الأطفال:

- ومن الذي كان يجمع ملصقات هانا مونتانا؟

- أفضل ممن كان يحب المصارعة ليتا..

* * *

كانت رغد تتردد علينا كثيرًا في هذه الفترة، خصصنا غرفة لنا في الفيلا لتصبح معاشًا، أفرغناها من كراكيبها وملأناها بأثاث جديد اختارته، بألوان سماوية مبهجة، واكتشفت أنّها تحب الرسم وتجيده، وخاصة الرسام بيكاسو، كانت عاشقة له، ملأت الفيلا بلوحاته، لوحات مبهجة، وأخرى مؤلمة، لوحة بها عجوز يعزف الجيتار، وأخرى بها جنود يهددون نساء عاريات، لوحاته أبعادها غريبة لا تهدف إلى أن تكون واقعية، إنها فقط خطوط توحي بالرسمة ولا ترسمها كما هي، وكل صورة ترسمها كان لها قصة عندها، هذه رسمها بيكاسو عندما كان يحب كذا، وهذه رسمها عندما تركته كذا، وهكذا وهكذا، حتّى سور الفيلا الكبير، رسمت عليه جدارية عملاقة بالأبيض والأسود، قالت إنّها جدارية جيرنيكا لبيكاسو، وهو اسم مدينة إسبانية قصفت بالنيران في ذلك الوقت، فرسمها.

سألتها: لم تحبين الرسم لهذه الدرجة، ولم بيكاسو بالتحديد؟

وأعجبتني إجابتها، قالت وهي تلون وتلوّح بالفرشاة بين أصابعها:

- لأن هذا العالم لا يمكن العيش فيه من دون أن يعثر المرء على مهرب مؤقت، وهذا المهرب لا يمكن أن يكون إلا هواية ما.. الذين يعيشون بلا هواية يعيشون في دائرة روتين مثل الموتى الأحياء، قد تكون الهوايات بسيطة مثل التصوير أو القراءة أو حتّى جمع القواقع البحرية، ولكنّ

هذا الشغف ضروري لاستمرار الحياة، الذي يدفع الكاتب إلى التعرّف على قلمه، والقارئ إلى احتضان كتابه، والرسام إلى الغوص في ألوانه، وأما تفضيلي لبيكاسو خصيصا، لأنّه تمرّد على الصورة التي نرى بها العالم، رسمه غير التقليدي جعل لوحاته نوافذ إلى عوالم أخرى، لتشكّل خير مهرب مؤقت للناس، فلا يملّون رتابة عالمهم، لوحات أحيانا تدخل السرور على قلوبهم، وأحيانا أخرى تحدّثهم وتواسيهم.

بعد كلام رغد قررت أن أرسم، جعلت أقلّد بيكاسو فأرسم أشكالًا غريبة حتّى خرّبت لوحة رغد قبل أن تتمها، كانت تضحك على ما رسمت، بينما كنت في لحظة فخر به وكأنني دافينشي أنهى لتوّه الموناليزا.

بعد أيام دخلت رغد إلى السبات وخرج ماريو، أخبرته بأمر حفل الزفاف، أحزنه كثيرًا أنّه لن يستطيع الحضور، وذلك لأنه سيتم في وقت سباته، ولكنّه هنّأني وتمنّى لي زفافًا سعيدًا، ساعدني كثيرًا على التجهيزات، التي كانت حقًّا مجهدة، ومكلّفة، تقريبًا أعدنا ترتيب وتنسيق الفيلا كاملة لتبدو جديدة، ثم بدأنا في التحضير للحفل، بالطبع دعوت تويا، في البداية تظاهرت بالبلاهة، "زفاف مَن؟" "ومَن تعيسة الحظ؟" "ومتى؟" "وأين" "أها، طيب، ألف مبروك" ثم تظاهرت بالسعادة والدهشة، المهم أنّها أكدت حضورها، ثم دخلت إلى السبات، وخرجت رغد لتباشر التجهيزات مكاني، وسرعان ما وجدت نفسي أخرج إلى حفل زفافي، امتلأت حديقة الفيلا بالمدعوين، عدد كبير من الناس لم أعلم من أين وكيف جاءوا، هكذا هي الأفراح، وكانت تويا في قمّة تألّقها، أجمل من في الفرح تقريبًا، رغم صغر سنها، لدرجة أنني لمحت نظرات الغيرة الشديدة في أعين رغد، عندما جاءت تهنئني وقبّلتني قبلتين، وذلك ما أغضبها، ولكنّها لم تظهر ولم يلاحظ أحد سواي، رغم ذلك كان يومًا لا ينسى،

رقصنا أنا وهي على عزف خاص بين جدي وعم رمزي، لأول مرّة أراهما يعزفان معًا، أوركسترا كاملة مكونة من عازفين فقط أغنية كان اسمها "ست البنات"، ورقصنا حتّى صفّق الحضور وتعالى صفيرهم لدقائق طالت من كثرة الإعجاب والانبهار، وبالتدريج فرغت الفيلا من الناس، واحدًا تلو الآخر، هدأت أصوات الاحتفال، وانصرف آخر المهنئين، وبقى أنا وهي فقط، أتأملها وتتأملني، بخجل ووجنتين حمراوين، كم كانت جميلة، وكم كان يومًا رائعًا، مبهجًا رغم أنه مجهد، ولكن مَن الذي قال إن الروايات تنتهي بعد الزواج، إنها فقط تبدأ.

الفصل الثامن

1

كان شهر عسل بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث كان موسم تزهير الموالح، أحد مواسم قطف العسل، فكنت أعلّم رغد كيف تستخرجه، وكيف تعبئة، وما غير ذلك من أمور خاصة بالنحل، أقسم لكم أنّها أتقنت تلك الحرفة كأنها خلقت من أجلها، تبدو بمرحها وسط النحل وكأنها ملكتهم، تحلّق بينهم في بهجة، ألفها النحل سريعًا، ويقول جدي إن من يألفه النحل، يكون طيب القلب، لمّا انتهى الشهر وصّلتها إلى صرح السبات، وخرجت مشتاقًا إلى صديقي ماريو، تقابلنا في الفيلا، وقضينا الليل كلّه نتفرج على لقطات من حفل الزفاف، أحكي له ما حدث بالتفصيل، كنّا نضحك على أشياء لا تستدعي الضحك، وحكيت له عن تويا، وكيف أنّها لم تكلمن طوال الشهر مذ تزوجْت، ولمّا ذكرنا تويا، وجدناها تدق باب الفيلا، فتحت، فكانت متجمدة أمام الباب، تبكي، لم أكد أسألها ماذا بكِ حتى قالت:

- بابا مات.

* * *

شيّعنا الجنازة، وحتّى أنهينا دفنه في المقابر لم يتجاوز عدد الزوّار إلا

بضع أفراد فوق العشرة، هل أمسك الناس عن مواساة بعضهم.. يختفون مثل ثلج بخس أسفل شمس حامية، لأنهم يكرهون تذكر الموت، تكدست القبور متراصة بعضها فوق بعض، كثر الموتى مع كثرة الناس، حتّى أن حالات الوفيات في ذلك اليوم كانت كثيرة، ورغم ذلك صوت الصمت كان أعلى، ألوان الثياب الداكنة تعتلي أجسادنا، والخوف والحزن معًا، همهمات هادئة وبكاء مكتوم، لم تكف تويا عن النحيب، كم تعاطفتُ معها، عانقتها وواسيتها كثيرًا، إنها صغيرة ووحيدة وكانت تحتاج إلى من يؤازرها ويدعمها، عدنا إلى نفس جلساتنا المعتادة في الاستراحة، ولكن لم نعد نضحك مثل ما برح، وكأن طيف عم عز وصوته لازالا يثويان بالمكان، ربما كان بيني وبينه بعض المشاكل، كان يجن جنونه بسبب خوفه من النحل ويفعل بعض التصرفات الحمقاء، وأنا أيضًا، ولكنّه لم يكن شريرًا، ولم يقصد الشر، حتّى جدي لمّا خرج من سباته وعرف الخبر أعرب وجهه عن حزن شديد، وقال في يأس "أخشى أن يموت كل الناس من حولي ولا يبقى غيري" حتّى رغد أظهرت تعاطفًا وأسفًا واستياءً، خيّمت سحابة الحزن على المنطقة لأيام عدّة، ولم يبددها سوى ما أخبرتني به رغد ونحن نرعى النحل، لتحوّل بكلماتها العالم من بؤسه الشديد، إلى سعادة غير متناهية، احتضنتها بقوة، ولم أبال أن انسكب وعاء العسل دون قصد منّي، وعلى ملابسها المفضّلة، هذا عندما أخبرتني ببشرى الضيف الجديد:

- ياسين.. أنا حامل.

2

كانت تشعر أنّها بنت، يقولون إن الأم تعرف، أرادت أن تسميها "رنيم" عجبني الاسم، واشترينا لها غرفة نوم وردية وألعابًا وعرائس عديدة، وأما أكثر من أسعده ذلك الخبر فكان جدي، عانقني وعانقها من شدة فرحته، لم أره من قبل أبدًا بتلك السعادة، لمّا كانت رغد تذهب إلى سباتها الشهري، كنت أذهب لأشتري ألعابًا وتحفًا ومقتنيات للأطفال، أرتّبها في غرفة "رنيم" بشكل متناسق وأخّاذ، أراعي أن تليق هذه الأشياء لولد أو لبنت، رغم أني كنت أميل إلى شعور رغد أنّها فتاة، أنها رنيم، كثيرًا ما كنت أجلس وحيدًا في غرفتها الصغيرة، أتخيلني وأنا أداعبها، أحملها وأجري بها، أو أتحدث معها في الليل وهي نائمة، أخبرها كم تشبه أمّها، وكم أحبهما، ثم أترك الغرفة وأذهب للسبات، تخرج رغد، أقبّلها وأتركها تذهب لتتفاجأ بما تركته لابنتنا الصغيرة في غرفتها، ولمّا أخرج، أجد رغد في انتظاري، في نفس المكان الذي أخبرتها فيه بحبي لها، تأخذني إلى الفيلا، تغمّي عيناي بكفّيها الناعمتين، وبطنها البارز يلمس ظهري فيصيبني بالقشعريرة، تفتح غرفة رنيم وأنا مغمض العينين، ثم تأمرني بأن أفتح عيناي، لأجد زينة بلون وردي تملأ المكان ومكتوب على الحائط بألوان بارزة لامعة It's a girl تأكدنا أنها فتاة، وعلى الباب لافتة خشبية مكتوب عليها "رنيم" بخط انسيابي رفيع، ولعبة جميلة كبيرة جدًا لنحلة ضاحكة، فأحتضنها وأقبّلها، توالت الهدايا علينا حتّى قبل أن تولد نحلتنا الصغيرة، من ماريو ومن جدي ومن تويا، التي ورغم كل شيء لم تتوطد العلاقة بينها وبين رغد أبدًا.

3

وفي ذلك اليوم الشقي، كان يوم سباتي، ويوم خروج رغد من سباتها، انتظرتها في الساحة، تأخرت كثيرًا، فتذكرت ذلك اليوم الذي تأخرت فيه يوم أن رأيتها، ولمّا طال الانتظار احتدّ القلق بداخلي، وداعبت الظنون مخاوفي، واضطربت اضطرابًا شديدًا، كانت القاعة شبه فارغة، فرأيت أن أتسلل إلى الداخل مثلما فعلتُ في المرة السابقة، أعرف مكان الكبسولة جيدًا، كنت أنحني واختبئ خلف أحد الكبسولات إذا شعرت بأي حركة قريبة، لم أكن مطمئنًا مثل المرة السابقة، شغلتني الوساوس والهموم حتّى أثقلت ظهري، وأبهمت رؤيتي، الزجاج يظهر الناس بالأعلى وبالأسفل في الطوابق البعيدة أشباحًا هائمة، وكأنها تطير بحثًا عن فريسة ضلّت الطريق، وأوجه الناس داخل الكبسولات كأنهم موتى غاضبين على وشك البعث، تطوف أرواحهم فتخترقني ذهابًا وإيابا، وكأنها تهددني أن ابتعد من هنا، كنت في غاية الرعب، وصوت الموسيقى الخافت والإضاءة الباهتة يزيدان الأمر سوءًا، حتّى اقتربت من الكبسولة التي يفترض أن رغد بداخلها، كان عندها عدد كبير من الأطباء والمختصين، وقفت بعيدًا خوفًا من أن يراني أحد، درت حول الكبسولة لأحصل على مكان به رؤية واضحة، بدا لي أن الأطباء في حالة فزع شديد، وبعد لحظات وجدتهم يخرجون رغد من كبسولتها على نقالة، فاقدة للوعي، وجسدها غارق في دماء جارفة تسيل من رحمها!

صرختُ "رغد.. رغد" ناديتها بأعلى صوتي، فانتبه كل الرجال مفزوعين، وصرخ أحدهم:

- كيف دخلت إلى هنا، من أنت؟

قلت مذعورًا: إنها زوجتي، أخبروني ماذا بها، أنا طبيب.

وقال: ممنوع الدخول هنا يا أستاذ، الأمن، أين الأمن؟

وجاء أفراد الأمن مسرعين، قيدوني مثلما قيدوا عم رمزي من قبلي، جعلت أقاومهم، بل أصارعهم وأضربهم محاولًا إفلات نفسي، أرمقهم وهم يسحبونها بعيدًا، ونزيف الدماء من خلفها يرسم خطًا متقطعًا، يسحبونها بعيدًا عنّي، ويسحبونني بعيدًا عنها، قطرات الدمع في طريقي، وقطرات الدم في طريقها، لا يلتقيان أبدًا. جرجروني إلى غرفة تشبه السجن، عازلة للصوت، وأنا لم أكف أبدًا عن الصراخ، "إنها زوجتي، إنها زوجتي يا أنجاس يا أولاد الزانية" ولكن لا يجيبون، ثم تسرب إلى الغرفة رائحة غريبة، تعرّفت عليها بعد دقائق قليلة، إنها مخدّر، أو مهدئ، فحاولت أن أكتم أنفاسي حتّى كدت أختنق، أخبّط بكل ما أوتيت من قوة على الباب حتّى أفتحه أو أكسره، إلى أن وهنت أعصابي، وتركت نفسي فريسة للمخدر، استسلمت وسقطت على الأرض أبكي بآخر ما بقي عندي من قوة، حتّى تراخت جفوني، وانهارت أطرافي المتجمدة، سكنت في الظلام، ولم أتذكّر شيئًا حتّى استيقظت، فوجدت نفسي في الكبسولة، وقد مُرّ شهرًا كاملًا على هذا الحدث!

* * *

أخذت أركض بين الأبدان كالمجانين، أسأل عنها كل مَن رأيته مِن المختصين، وجميعهم كالحمقى يرفعون أكتافهم متظاهرين بالجهل، يهزون رؤوسهم ويبسطون أكفافهم، ثم يتابعون طريقهم غير مبالين بما أقول، بعد أن عجزت عن الحصول على أي إجابة ذهبت إلى الفيلا آملًا أن أجدها هناك بخير، أفكّر راجيًا أن ذلك ربما كان حلمًا، أو أي سبب

آخر يدعو إلى الاستبشار والتيمّن، كانت الاستراحة مقفولة، وفي الفيلا وجدت تويا تجلس مع جدي، كانا يرتديان الأسود، فقُلت عادي ربما من أجل عم عز، رغم أن شهورًا مرّت على ذلك، ثم سمعت نحيبهما يبكيان، فقلت عادي رغم أن عيناي قد امتلأتا بالدموع، ولكن قلبي أخبرني أن الأمر طبيعي، هما يبكيان لأنّهما يتذكران عم عز، هذا معقول، ثم اقتربت منهما، ونظرا إليّ، وفي نظراتهما قرأت كل شيء، وقال جدي بصوت مبحوح يكاد يأبى الخروج من حلقه، فبكيت قبل أن يقولها:

- البقاء لله يا بني.

زوجتي وابنتي يموتان في يوم واحد، ضاع كل شيء، والسبب هو ذلك النظام اللعين، ومنذ ذلك اليوم، وقد انقلبت حياتي مئة وثمانون درجة.

4

أقسمت أن أنتقم من المسبب أيًا كان، لن أسكت أبدًا، ولكن أولًا عليّ أن أعرف كيف حدث ذلك بالضبط، ولمِ؟ عرفت لحسن الحظ أن رغد لازالت بالمشرحة، وبحكم علاقاتي كطبيب استطعت أن أصل إلى المسؤول عن المشرحة في وردية الليل، كان صديقًا لصديقي، وباستخدام بعض الرشاوي، وقدرتي المتواضعة على الإقناع، استطعت أن أحصل على مكانه لثلاث ليالٍ متتالية، في تلك الليالي سوف أفعل ما بوسعي لمعرفة سبب الوفاة، جهزنا كل شيء، بطاقة دخول للمستشفى وللمشرحة، ارتديت الكمامة على وجهي حتّى لا تكشفني الكاميرات، رغم أن مراقب الكاميرات كان يعرف أنني قد جئت بدلا من هذا الرجل، ولكن لا مانع من الاحتياط.

إذا أردت أن تصل إلى المشرحة في أي مستشفى، فغالبًا سوف تسير في طرقات طويلة، وطوابق سفلية، ومتاهات مظلمة، وكأنهم يقصدون تضليل الأرواح كي لا تخرج، رغم أنني عملت لسنوات كطبيب طوارئ، ورأيت أشكالًا من الإصابات والحوادث، ممن قطّعت أوصالهم، أو شجّت رؤوسهم، أو فتحت بطونهم، وكثيرًا ما لطّخت الدماء ثيابي وأصابعي ووجهي، ولكني لم أخف، إلا الموت، أبدًا ما انفكّت هيبته، في اليوم الذي يموت فيه إحدى الضحايا بين كفوفي، أعجز عن النوم، تصيبني الوساوس

ولا أحجم عن النظر في كل لحظة إلى الخلف بغتة، أشعر أن روحه تتبعني، تلازمني، تناديني من عالمها الخاص "أعِدني إلى جسدي، ألست طبيبي، إما أن تعيدني أو أن آخذك معي إلى جحيم أبدي". المشرحة من الداخل واسعة جدًا، خافتة الإضاءة، ولها رائحة خاصة، رائحة ثقيلة على القلب، وشعور خاص، باردة جدًا، هادئة، وساكنة تمامًا، حتّى الهواء فيها ساكن فلا تشعر بأنفاسك المتلاحقة، كأنّك قد غدوت مثلهم لا تحتاج إلى الهواء، توضع الجثث داخل ثلاجات أبوابها سداسية الشكل، مرتصة على الحائط تمامًا كخلايا النحل، ووسط كل باب شاشة دائرية صغيرة ذات خلفية بيضاء، مكتوب عليها بخط رقمي أسود بيانات الجثة ورقمها، وعلى شاشة أخرى كبيرة كانت جوار الباب أجريت بحثًا على اسم رغد، ضغطت عليها فأحدثت ثلاجتها صوت صفير إلكتروني، وتحولت شاشة البيانات البيضاء إلى لون أحمر حتّى ألاحظها، أعطيت أمرًا أن تخرج الجثة على سرير الفحص، فانفتحت الثلاجة بارزة إلى الخارج وفوقها الجسد الهامد، ونزلت من السقف أعمدة حديدية مثل أرجل العنكبوت، حملتها بنفس الفراش الصغير أسفلها ووضعتها بتأنٍّ وبطء على سرير الفحص، وجهها شاحب نحيف، بشرتها القمحية أضحت بيضاء، بطنها مترهلة، فمها مفتوح قليلًا، وشفاهها رمادية قاتمة، أتاني شعور بالتقيؤ فأمسكت نفسي، ولكن لم أستطع أن أمسك عيني التي أدمعت، أدرت وجهي قليلًا، كفكفت دمعي، وقررت أن أبدأ الفحص، ولا أضيع وقتًا، في اليوم الأول احترت كثيرًا في معرفة سبب الوفاة، ولكن الأرجح أن السبب هو الجفاف، ذهبت إلى الفيلا في صباح اليوم التالي، لم يزُرني النوم أبدًا، قضيت النهار كلّه أبحث عن أي مقالات أو تقارير تتحدث عن أي

مشكلة مشابهة لما حدث معي أو حتّى أي مشاكل أخرى في نظام السبات، جرّبت كلمات بحث عدّة، وجرّبت لغات عدّة، احمرّت عيني من كثرة التمحيص في الشاشة الكبيرة، حتّى جاء الليل، فاتخذت طريقي نحو المشرحة، في ذلك اليوم تأكدت أن سبب وفاة الأم هو نفسه سبب وفاة الجنين، وهو الجفاف ونقص الغذاء، ويبدو أن رغد قد ماتت قبل الطفلة ببضع أيام، فكّرت كثيرًا كيف يمكن أن يحدث ذلك، حتّى الصباح، وفي طريقي إلى البيت تذكرت قصة تويا، عندما قالت إنّها قد استيقظت قبل موعد انتهاء سباتها بأيام، ولكنّ المختصون قد استشعروا ذلك وسرعان ما جاءوا فطمأنوها وأعادوها للسبات، خطأ تقني بسيط، ولكن هذه المرة ما حدث هو أن من استيقظ كان الجنين، ولم يستشعر المختصون بأي حركة غريبة في الكبسولة، فظلّت رنيم متيقظة تطلب الغذاء من الأم، حتّى أصيبت رغد بجفاف، ثم ماتت، ثم ماتت رنيم في بطنها، لم أنم ذلك اليوم أيضًا، حيث قررت قبل النوم أن أستكمل قليلًا التصفح والبحث، فعثرت على كنز ثمين، طرف خيط وضعني على أول طريق النور، مقطع فيديو بلا عنوان، موضوع في تعليقات أحد المقالات القديمة التي لاقت عددًا ضئيلاً من الزوار، ليس به إلا كلام مرسل عن أسباب حدوث الكارثة الاقتصادية، ولكنّ ذلك الفيديو، كان به أسباب مختلفة تمامًا، سرعان ما قمت بتحميله على الجهاز احتسابًا أن يتم حذفه أو حظره، وشاهدته عدة مرات، تم تصوير الفيديو في ساحة واسعة، مليئة بالآلات والأعمدة الحديدية والرافعات، وكأنه مصنع تجميع سيارات أو قطارات، أو مثلًا كبسولات سبات!

أمام الفيديو مجموعة من العمال يرتدون زيًا موحدًا أصفر مرسومًا

عليه شعار طاهر صامويل الشهير، يتحدث العامل الذي يمسك الكاميرا بالإنجليزية قائلًا:

"أنا العامل (بول ستيف) أعمل منذ أكثر من عشر سنوات في شركات طاهر صامويل، وهؤلاء العمّال الذين من خلفي هم زملائي منذ مدة طويلة، وهناك أمر خطير سوف نخبركم به، ونحن مسؤولون تمامًا عمّا نقوله، منذ بضع سنوات ونحن نعمل على بناء آلة غريبة، وهناك مجموعة من كبار المهندسين يعملون على تصميمها منذ سنوات عدّة، أجرينا تجارب بالمئات، وتكاليف بالمليارات، كل ذلك ولم نكن نفهم ماذا نصنع بالضبط، يقولون أجهزة من أجل سفن الفضاء، ولمّا وصلوا إلى التصميم المرغوب، صنعنا من هذه الآلة أعداد بالآلاف، ثم حلّت علينا الكارثة الاقتصادية كالكابوس، ولم نتوقف أبدًا عن العمل، بل طبعنا خريطة تفصيلية للتصميم، بهدف إعطائها لشركات أخرى حتى تباشر التصنيع بالتزامن معنا لصناعة كمّيات أكبر، لم نفهم أبدًا السبب، لم يحتاجون إلى تصنيع كل هذا العدد بينما الاقتصاد ينهار، هل سيرسلون البشر كلّهم إلى الفضاء! ولكن بالأمس، في ذلك المؤتمر العالمي، عندما عرض طاهر صامويل خطته للنظام الجديد، اكتشفنا السبب، لقد كنّا نصنّع تلك الكبسولات اللعينة منذ سنوات، كيف كان يعرف أن تلك الكارثة ستحدث، كأنّه وبرفقة المنظمات التي تسانده افتعلوا تلك الأزمة ليعلنوا عن هذا النظام الذي يحضّرون له منذ سنوات، صدرت التعليمات بتصنيع تلك الآلة اللعينة قبل حتّى أن توافق سائر الدول على التنفيذ، إنه أمر خطير جدًا جدًا ما نحاول إخباركم به الآن، نحتاج أن نتواصل مع كبار المسئولين، الذين يستطيعون الوقوف أمام هذا المخطط قبل فوات

الأوان، لدينا معلومات شبه مؤكدة أن هذه الكبسولات تشتمل على تقنيات متطورة يمكن من خلالها التحكم في خصوبة الفرد، وتعقيمه سواء كان ذكر أو أنثى، وحرمانه من الإنجاب إلى الأبد، كما أنّها تقدر على دس سم بطيء المفعول من أعراضه تسارع الشيخوخة وضعف المناعة وعضلة القلب، نحن لا نعلم إلى ماذا يخططون، ولكنّه بالتأكيد شيء غير جيد على الإطلاق، شكرًا على المشاهدة، شاركوا هذا المقطع الخطير بقدر ما استطعتم، كان معكم (بول ستيف) و.. ".

وانتهى المقطع بعد ذكر أسماء زملائه الثمانية، الآن يتضح كل شيء، وبدلًا من أن أبحث عن نسب الوفيات، بحثت عن نسب المواليد، لأرصد انخفاضًا هائلًا، وارتفاعَ نسبة الشكاوى من العقم بدرجة كبيرة، وتقريرًا وحيدًا عن ارتفاع نسبة العقم والوفيات بين المرضى النفسيين، والمتأخرين عقليا، وذوي الإعاقات، وأصحاب الأمراض الوراثية!

الآن ينكشف كل شيء بالتدريج، ربما موت رغد كان خطئًا غير مقصود، ولكنّه بالصدفة يبرز لي مخططًا آخر أكثر بشاعة، الآن تأكدت ظنوني، إنّهم يخفّضون أعداد البشر، ولكن ليس بالسبات، بل باليوجينيا، علم تحسين النسل Eugenics وهي حركة عنصرية متطرفة تهدف إلى التحكم في نوع السلالة البشرية، عرفت أيضًا أن من ضمن شركات طاهر صامويل القديمة، شركة كانت تصدّر حبوبًا معدلة وراثيًا تتغلب على النباتات والحشرات المتطفلة، ولكن هذه الشركات من ضمن عقودها تملك حقوق إعادة زراعة الحبوب الناتجة من ذلك المحصول، باعتبار أن هذه الحقوق تعود إلى الشركة وليس من حق أي زارع أو شركة أخرى الانتفاع من هذه الحقول المعدلة إلا بموجب عقد مُوقّع، وأصبحت حبوب

الزراعة سلعة تجارية ترأسها شركة واحدة على قمّة الهرم، وهذا هو سبب تضخم الثروة الهائلة التي ساعدته على كل ذلك، وبالتأكيد أنّه قد نشر الهالوك في العالم بهذه الطريقة، مع العلم أن شركاته هي أول الشركات التي أنتجت ما يقاوم هذا الهالوك، فيأخذ اسمه بطولة إنقاذ العالم من الخطر العظيم، ويستفيد ماديًا من مبيعات إبادة الهالوك التي يحتكرونها، ويتم حل الأزمة المفتعلة، ويبدو للناس أن نظام السبات هو السبب، خطة محكمة، ولكنّي سأفضحهم، لقد جمعت ما يكفي من الحقائق، وسوف أعلن الحرب على هذا النظام المحتكر حتّى النهاية، انتقامًا لها، وللعالم أجمع.

5

انسكب الظلام وسال بين ممرات الفيلا وحدائقها، وحان موعد ذهابي للمرة الثالثة إلى المشرحة، بالأمس كنت قد جمعت كل الحقائق، فكّرت بأن لا أذهب، خصوصًا وأني لم أنم منذ ثلاثة أيام كاملة، حتّى انتفخت أجفاني وتسللت بين خلاياها هالات سوداء، وفي عيني خطوط من برق أحمر يشق بياضها شقًّا، ولكنّي سأذهب، سآخذ معي كاميرا وأصور كل شيء، وسوف أصمم مقطع فيديو وثائقي كامل أجمع به كل ما أعرف من حقائق، فيديو العمّال، وسبب موت رغد، معدل الوفيات وارتفاع نسبة العقم، أصل شركات طاهر صامويل وانتشار الهالوك، سوف أصور كل شيء وأنشره على مواقع التواصل وفي القنوات المختلفة وكل ما عرفت أو استطعت من وسائل الإعلام في وقت واحد، حتّى لا يمكنهم أبدًا حذف الفيديو، "وإذا ضربت فأوجع، فإن الملامة واحدة" أخذت الكاميرا وصوّرت كل شيء، عرّفت نفسي في بداية المقطع، ثم عرضت ما صوّره العمّال، أجريت بحثًا مباشرًا عن بيانات العامل (بول ستيف) لأؤكد للناس أنّه كان يعمل فعلا في شركات طاهر صامويل وتم فصله، بل واكتشفت أنّه الآن يعالج في مصحة أمراض عقلية، غريب! كيف كان الرجل يتحدث بمنتهى الثبات والعقل، وكيف يعمل مريضٌ عقلي في أكبر شركة في العالم، ثم عرضت الفيديو الذي صوّرته، مع عرض صور قريبة

لوجه رغد إلى جواري في المشرحة، وصورة أخرى تجاورها لنا ونحن في حفل الزفاف، ومعلومات عن أصل طاهر صامويل وبداياته في شركات الهندسة الوراثية، وأفكاره العنصرية المطعمة بكلام معسول، اتخذت صناعة ذلك الفيديو أكثر من أسبوعين، وبقي خطوة النشر، خرج ماريو خلال تلك الفترة، وكان الدور على جدي في السبات، كان جدي من شدة حزنه على رغد لا يغادر غرفته، وفي يوم سباته، وبرغم ما عرفت من حقائق، طلبت إليه أن يذهب، حتّى لا يأتي رجال الشرطة ويقومون بأخذه إلى السجن، لن يتحمّل هناك يومًا واحدًا، وليس الشيوخ أو العجائز من يستهدفهم ذلك النظام، لأنهم قد اقترب موعدهم على أي حال، لم أخبر جدي أي شيء مما عرفت، وصحبته بنفسي إلى صرح السبات اللعين، كنت أحاول طمأنته، ومن داخلي كنت في أشد القلق عليه، أردت في آخر لحظة أن أوقفه، أن أقول له لا تذهب، ولكنّي ترددت، ورنّت شريحته، فذهب مبتعدًا، وأخذت أراقبه حتّى اختفى، اتصلت بماريو، بدا على صوته الحزين أنّه كان على خبر بموت رغد قبل سباته، أخبرته أن يقابلني في الفيلا، هناك حيث كان قطّه شرودنجر وحيدًا، أحببت مجالسة هذا القط كثيرًا، لأن رغد كانت تحبه، وهكذا جدي، انتظرت قليلًا حتّى جاء ماريو، سرعان ما قرأت الأسى على صفحات وجهه، لم يعد ضاحكًا مثل سابق عهده، وقال بصوت هامس خرج من حلقه بصعوبة:

- البقاء لله!.

- ادخل يا ماريو، هناك الكثير لأخبرك به.

ثم حكيت له كلّ شيء بالتفصيل، مذ رأيتها تنزف في صرح السبات، وحتّى صناعة الفيديو، فرّجته عليه كاملًا، كان مشدوهًا، حزينًا ومرتعبًا،

أعجبه الفيديو، اقترح بعض التعديلات حتّى يبدو أكثر احترافية، استغرق ذلك وقتًا إضافيًا، ثم قمنا بنشره على صفحتي الخاصة أولا، ونشر ببساطة، قال ماريو إنّه سوف يستخدم بعض الطرق الملتوية لرفع مشاهدات الفيديو، وجعلت أبحث عن مختلف القنوات ووسائل النشر، أعرض لهم الفيديو، منهم مَن رفض، ومنهم مَن قبل، ولكن لم ينشره، ومنهم من قال لي "سنوافيك بالرد" وبالطبع لم يصلن أي شيء.
في تلك الليلة شعرت بقلق شديد، كنت متأكدًا أن قوى الشرطة ستأتي لاعتقالي، ثم أختفي من الوجود، قررت الهرب، هكذا سوّلت إلي نفسي، وأول خطوة للهرب هو خلع تلك الشريحة، أعلم أنّها موصّلة بالأعصاب، وأن نزعها يسبب حالة إغماء عميقة، ولكن ملأني الغرور، قلت لنفسي "أنا طبيب، سوف أفعلها بسهولة" اشتريت مخدرًا قويًا للأعصاب، حقنته في ذراعي، وبالمشرط والمقص قصصت الجلد حول الشريحة، وبحرفية وخفّة يد وبطء شديد نزعتها من فوق ذراعي، أبعدتها بضع ملليمترات فقط، فأصدرت صاعقة كهربية صغيرة جدًا، وصوت يشبه الأزيز استمر لأقل من ثانية، ثم شعرت بتنميل ودوار يصيب جسدي، سقطت بغتة، وقبل أن ارتطم بالأرض فقدت وعيي، حيث استعدته مرّة أخرى في زنزانة صغيرة، وكأنني سقطت في هاوية قذفت بي إلى هناك.

الفصــل التــاسـع

1

ستة أشهر كان من المفترض أن أقضيها في ذلك السجن اللعين، عقوبة محاولة نزع الشريحة الأولى، وفي كل محاولة أخرى تتضاعف المدة، أقضيها بلا سبات، منزوعًا من كل وسائل الترفيه، حتّى الطعام، كل ما أعيش عليه هو حبوب الفيتامينات والماء وفتات الخبز الجاف، عشت أيامًا مظلمة، خاصة في آخر هذه المدة، كنت متأكدًا أن هذه الحبوب التي يعطونها لي تتلاعب بحالتي النفسية، تجلب الاكتئاب والضيق والأرق، ولم يكن لي رفيقًا إلا شبح الظلام، حتّى أنني كدت أصاب بالعمى إذا رأيت النور، في الأسبوع الخامس جاءني أحد الضباط، أخذني إلى غرفة معدومة الملامح من شدة الإظلام، إلا من كشاف قريب مسلّط على منتصف طاولة جلست أمامها، وبعد حوالي خمس ساعات يدخل لي ضابط أصلع عريض المنكبين، سألني:

- ما هي علاقتك بمنظمة Dire؟

لم أفهم، ولا أعرف عن أي شيء يتحدث، ولكن في قلبي غضب شديد، أفرغته دفعة واحدة، وبصراحة شديدة، وجرأة أشد، قلت له بغضب:

- اسمع.. لا أعرف عن أي شيء تتحدث، وأظن أن أساليبكم القديمة لن

تفيدكم معي، الترهيب والتعذيب وتلفيق التهم، لأنني لا أملك ما أخفيه، وليس لدي ما يجعلني أرغب في الحياة، ماتت زوجتي وهي حامل، داخل مقبرة لعينة صممت للأحياء، أبديت اعتراضي الكامل عن هذا النظام، أجريت بحثًا وعرضت حقائقه، حتّى يتّعظ الناس، وما بعد ذلك، فلا يهمني، لقد أتممت مهمتي.

- ولكن منظمة Dire المحظورة ساعدت على نشر الفيديو والترويج له.

لم أُجبه، لا أعرف حقًّا عمّ يتحدث، من أعرف أنّه ساعدني على الترويج للفيديو كان ماريو، الذي لا أريد أن اذكر اسمه حتّى لا أورطه، كلمة Dire الإنجليزية التي يقولها تعني شيئًا مروّعًا، ما علاقة منظمة بذلك الاسم بالترويج للفيديو، رغم أنني كنت غاضبًا، إلا أن نبرتي كانت توحي بأن قلبي يملأه رعب وخوف، حاولت أن أخفيه فبدوت مثل أبله يدعي الشجاعة، ولمّا قال كلماته الأخيرة رفعت كتفي متظاهرًا بالجهل، وتحدث الرجل بلهجة ودودة:

- أنا أصدقك يا ياسين، ولست هنا لأعذبك مثلما تظن، ولكي تطمئن أكثر، لقد جاءتنا أوامر عليا باستجوابك ثم إطلاق سراحك، قبل حتّى أن تتم مدتك، ومهما كان الذي قلته أو ستقوله، لقد أصبحت الآن رمزًا ثوريًا، كنّا فقط نريد أن نعرف حقيقة علاقتك بمنظمة Dire.

لم أصدّقه، وقلت له:

- لا أصدّقك، أعرف أنّك تحاول أن تجعلني أتحدث، لو كان كلامك صحيحًا فلم تأخرّت عليّ خمس ساعات، تلك الطرق الرخيصة لتصيبوني بالتوتر والقلق، قديمة جدًا، وأنت أيضًا لا تصدقني عندما أقول لك إنني لم أسمع أبدًا عما تقول.

- أعتذر لك عن تأخري، الأغبياء وضعوك هنا وأنا لم أتحرّك حتّى من بيتي، جئت مسرعًا، وأصدقك فيما تقول منظمة الـDire هي حركة مقاومة رقمية عالمية تتكون من مجموعة من الهاكرز، كلمة DiRe هي اختصار لكلمتي Digital Resistance المقاومة الرقمية، شبكة سرية عالمية من الهاكرز النشطين سياسيًا، ربما أنت لا تعرفهم، ولكن يبدو أن أحدًا أرسل لهم المقطع الخاص بك، وقد نشروه بطريقتهم، لتصبح أنت أيقونة لمقاومة نظام السبات في العالم كله، وجودك هنا الآن فضيحة عالمية.

ثم نهض من مكانه، وفتح الباب الذي كان خلفه، خارج هذا الباب نور ساطع ضايق عيني فمنعته بكفّي، ورأيت خيال الرجل وقد جلس مرّة أخرى، ثم أردف:

- يمكنك أن تذهب الآن، ولكن أولًا أريد أن أخبرك بشيء هام، أنت لست أهلا لتقف أمام هؤلاء القوم، يمكنهم مسح ثرواتك بضغطة زر، من لا يملك قوته لا يملك قراره، ربما قد فعلت ما يكفي والباقي على الناس، حان وقت الانسحاب، لازلت شابًا يافعًا، هل تعتقد أن هناك من هو بطل لكي يقاوم كل هذا، هل تعتقد أن الأمر بهذه السهولة، البطل هو من يهاودهم ثم يفعل ما يريد، الوقوف المباشر أمام كل ذلك قرار متهور، طفولي، ومتسرع، حافظ على نفسك يا بني.

لم أهتم أبدًا بما قال، سألته فقط:

- هل يمكنني أن أذهب الآن؟

أشار إلى الخارج، أومأ برأسه وابتسم، فتحركت متخذًا حذري، أتوقع فور خروجي من الباب ضربة بهراوة ثقيلة فوق رأسي تسقطني، وفحل

يقف بقدميه حول رأسي الدامية، يقول "هل صدّقت أن الخروج بهذه السهولة يا ابن الزانية" فمشيت مرتاعًا أتلفت بحذر يمينًا ويسارًا، ولكن لم أجد هراوة، ولا فحلاً، لا شيءَ إلا طرقة ممهدة إلى ساحة واسعة، وبوابة خروج إلى النور.

2

في الطريق إلى البيت كانت هناك ملصقات على الجدران عليها صورة رغد، عبارات مكتوبة في أكثر من مكان "متضامن مع ياسين" "لا للنظام العالمي الجديد" "لا لنظام السبات" كنت أجلس في السيارة، والناس كلّما ازدحم الطريق أشاروا علي من سيّاراتهم المجاورة، كنت في غاية العجب، فتحت زجاج السيارة فضولاً، فإذا برجل يسألني:

- هل أنت ياسين زوج رغد؟

أجيب مبتسمًا: نعم أنا.

يخرج هاتفه، يأخذ صورة معي، ثم يقول:

- متضامن معك يا بني، حقّ زوجتك لن يضيع.

وتكرر هذا الأمر كثيرًا حتّى وصلت إلى الفيلا، هناك وجدت جدي يجلس مع عم رمزي، وتويا، التي لمّا رأتني أدخل جاءت مسرعة، وقفزت تعانقني، تصرخ "ياسين" ثم تبكي وتتنهد، تخبرني أنّها كانت قلقة جدًا، وبينما أسلّم على جدي وصديقه، أجدها تسحبني فجأة من ذراعي:

- ياسين، تعال بسرعة، أريدك في أمر هام.

وبعيدًا عن جدي همست:

- عندما قبضوا عليك كان جدك في وقت السبات، ولمّا خرج لم أستطع أن أخبره أنّك في السجن، لقد منعوا عنك الزيارات، رأيت أن حالته النفسية

لن تتحمل أبدًا خبرًا مثل هذا، فأخبرته أنك في السبات، ولمّا تأخرت عن موعد خروجك قلت له إنّك اتصلت، وقلت لي أن أرعى جدّك وألا يقلق، هو يعرف أمر الفيديو وكل شيء، إلا موضوع السجن، أرجوك لا تقع بالكلام.

- شكرًا جدًا يا تويا، هكذا أفضل.

لما رجعت إلى جدي قلت:

- اعذرني على تأخري الأسابيع الماضية يا جدي، كنت أريد قضاء بعض الوقت وحدي.

- تماسك يا بني، هناك الكثير من الأمور الصعبة التي ستمر بها في حياتك، ولا تحزن كل هذا الحزن، لا تجعل تلك الضربات تقتل فيك الضحكة، فالضحكة هي الروح، وإذا ماتت في الإنسان ضحكته، مات.

- لا تقلق علي، علّمني الطب قوة التحمل، وتقبّل الموت.

وقال عم رمزي: لماذا لا نضع الطعام، يبدو أنّك جائع جدًا.

وكان محقًا، كنت أتضور جوعًا، أكلت وكأنني لم أتناول طعامًا أبدًا في حياتي، حتّى انتفخت بطني، وأصبت بإرهاق شديد، جلست معهم قليلًا لأطمئنهم، ثم استأذنت معتلًا بتعبي وذهبت، في غرفتي المفتقدة فتحت شاشة هاتفي على أوسع مقاس، وجعلت أتفرج على حركة التضامن معي حول العالم، فاكتشفت أن الأمر أكبر بكثير مما أعتقد، تضامنات ومظاهرات باسمي في مختلف بقاع العالم، من الشرق ومن الغرب، من الشمال ومن الجنوب، وبمختلف اللغات، نساء ورجال وشباب وأطفال يرفعون صورتي، وصورة رغد، ويهتفون باسمي واسمها، آلاف الرسائل، جعلت أقلّب فيها بمجرد النظر، لم أفتح أي منها، حتّى وصلت إلى أقدم الرسائل، لفت نظري جدًا اسم المرسل "DiRe"

فتحت الرسالة في دهشة من أمري، وكان نصّها:

"عزيزي ياسين، نحن منظمة المقاومة الرقمية السرية، مهمتنا هي محاربة الفساد السياسي في مختلف بقاع العالم، وقد توصلّنا منذ فترة إلى نفس ما توصلت أنت إليه، وبينما كنّا نجمع المزيد من الأدلة لنحضّر الضربة الإعلامية الأولى ضد هذا النظام، يرسل لنا صديقك "ماريو" المقطع الخاص بك، والذي كان أفضل ما يمكن نشره، شامل ومؤثر وصادق، وإلى جانب نشرنا الدوري للأبحاث والمواثيق، كرسنا جهدنا في نشر المقطع الخاص بك على أوسع نطاق ممكن، أعطيناه اهتمامًا أكبر، أنت تعرف أن هذا المقطع إن نشرته على صفحتك الخاصة فإن خوارزمية اقتراحات المشاهدة لن تقترحه لأحد، وبعد أيام معدودة سوف يتم حظر الفيديو بتهمة الحث على الكراهية، ومهما طلبت منهم مراجعة يدوية لن يقبل الفيديو أبدًا، بل ربما يتم حظر صفحتك كاملة، ما فعلناه لجعل مقطعك يصل إلى الناس كان أكبر وأخطر من أي شيء يخطر ببالك، لقد قمنا بالسيطرة على لوحة تحكم مواقع التواصل، منعنا الحظر عن الفيديو الخاص بك، وجعلناه في قمة الاقتراحات وكأنّه ممول بمليارات، ليصبح الفيديو الخاص بك الأكثر مشاهدة في تاريخ الموقع، الآن أصبح أكبر مما يمكن إيقافه، مشاركات ومشاهدات وتحميلات وتعليقات بالملايين، إن لم يكن المليارات، بعد هذه الضربة كان عليهم تنفيذ انتقام ورد فعل قوي، ورد الفعل لم يكن ضدك، لأنك أصبحت محصّنًا بواسطة الناس والرأي العام، السلاح الأقوى، وكان رد فعلهم ضدنا، أغلقوا كل مواقعنا وجعلوا يطاردوننا بالسجن أو بالقتل، هدفنا من هذه الرسالة هو تحذيرك، لا تجعلهم ينكلون بسمعتك، لا تترك لهم فرصة لتمزيق صورتك البطولية

لدى الناس، يشخصنون الأمور ويستخدمون سياسات مدروسة بعناية، سياساتهم أقذر مما تظن، استغل وضعك الحالي وكن قدوة للناس وخير منذر لهم، لقد وضعنا أملنا كلّه فيك الآن، فلا تضيعه".

كم أثقلتني تلك الرسالة، شعرت بعبءٍ كبير فوق أكتافي، وعجز عن التصرف، حاولت أن أستأنف الرسائل معهم، أرسلت لهم "وماذاً عليّ أن أفعل؟" ولكن الرسالة لم تُفتح أبدًا، كنت أتصفح في كل أخبار مواقع التواصل، الآن أصبحت موجة الهجوم على نظام السبات أكبر مما يمكن إيقافها، وملامح رغد أصبحت الأيقونة لكل هذا، وبينما أتصفح وجدت مقطعًا يحمل العديد من المشاهدات، عنوانه أثار اهتمامي كثيرًا: "رد طاهر صامويل على المقطع الذي نشره العربي الذي ماتت زوجته أثناء السبات" تم نشر المقطع منذ ثلاثة أيام فقط، ضغطت عليه، وشاهدته من خلال النظارة، طاهر صامويل يجلس على مكتب فاخر، ذي طراز قديم، ويتحدث وكأنّه في لقاء صحفي مصوّر، يقول:

"أنا أعرف أن ذلك الفتى قد تسرّع، لقد أغرته بعض الجماعات مقابل بعض الأموال، أو ربما الشهرة، أقواله مترهلة وملفّقة وغير صادقة، وسوف يدرك الأذكياء أصل تلك الأكاذيب عاجلًا أم آجلًا، قليلًا وينسونه، ولست هنا لأجيب عن كل ما يقال، نحن نعمل في صمت سعيًا وراء السلام والمساواة، وأري الناس تلمس نتائج عملنا بوضوح، لا نريد السيطرة أو التحكم في السياسة العالمية، لقد جئنا لنخلّصهم، ومع ذلك يلفقون لنا الاتهامات، منذ أن بدأنا التجربة ونحن نعرف أنّها مهما كانت مثالية سوف تقابل العديد من الانتقادات والتحديات، التي لا أساس لها من الصحة، ومع ذلك لم نتخاذل، رغم أنّي غير مستفيد منها أبدًا،

ولكنّي دائمًا أشبّه نفسي ببروميثيوس، إن لم تعرف بروميثيوس فهو أحد آلهة الإغريق الجبابرة، كان يتمتع بكل مزايا سكّان الأوليمب العظيمة، ومع ذلك قد أحزنه رؤية البشر في برد الشتاء محرومون من الدفء والأمن، فقرر أن يعطيهم النيران التي تدفئهم وتنير لهم، قام بسرقتها من جبل الأوليمب وأعطاها لهم، ذلك سبب غضب زيوس، كبير الآلهة، فعاقبه بأن قيده على صخرة في أحد الجبال، وسلّط عليه نسرًا عملاقًا يأتيه كل صباح لينهش من كبده، الذي يتجدد كل مساء، وإلى الأبد، لكن بروميثيوس رغم كل ذلك كان سعيدًا، لأن البشر يعيشون حياه سعيدة".

بعد أن رأيت الفيديو امتلأ جسدي بحالة من الغضب مثل بركان ثائر، وقررت أن أرد عليه، لن أكون الطرف الصامت، ولن أضيّع هباء ما فعلته شبكة المقاومة الرقمية من أجلي، سوف أبدأ حركة نضال وأقودها، لن أجعل الناس تنساني مثلما يقول، تملّكني الغضب ففتحت الكاميرا، لم أحضّر ماذا سأقول، ولست متكلّمًا مثله، بل أنا العكس تمامًا، ولا أملك هذا القدر الذي يملكه من المعلومات، ولكنّي كنت موقن بأنني أمتلك الحق، فأطلقتُ لساني يتحدّث:

"أسجّل هذا بعد دقائق من رؤية ما سجّله طاهر صامويل في فيديو يتّهمني فيه بالكذب، دون أن يعلّق على شيء واحد مما قلته، ودعوني أخبركم لماذا، لأن الناس لا تهتم بهذه التفاصيل، سحقًا للأرقام والمعادلات والحقائق، الشريحة الأكبر من الناس لا تثق إلا في أصحاب الكلمات الرنّانة، طاهر صامويل متمكن في علوم الاجتماع، وذلك يظهر جيدًا في كلامه، كيف يسيطر على الجماهير بمجرد الكلام، هو يتقن جيدًا ما يفعله، رغم أنّ تخصصات شركاته ليست في تلك العلوم، هل

تعرفون لماذا؟ لأنه يخطط منذ البداية للسيطرة، الذي يدّعي كاذبًا أنّه لا يسعى إليها، يكسب تعاطف الناس بذكر قصص مؤثرة ليشعرهم بانتماءٍ تجاهه وتعاطفٍ، أنه البطل والمخلّص الوحيد، وكل ما يطلبه هو كسب الناس، عن طريق حسن الظهور، والشعارات الرنّانة، مثل الأمان والسلام والمساواة، وهو يسعى فقط إلى السيطرة وفرض النفوذ لأغراض دفينة، فلا تجعلوا مجرد كلمات تغشي أبصاركم عن حقائق واضحة كالشمس، كونوا مع الحق".

نشرت الفيديو، كان التفاعل عليه متوسط.. ولكن لا بأس، لن أتوقف عند هذا الحد، ولن أوقف الحركة على مجرد منشورات كتابية، بعد أسبوعين سيكون موعد سبات جدي، وهذه المرة لن أتركه يذهب.

3

يهفو النحل بين أرجاء الفيلا مضطربًا، وكأنّه يبحث عنها، الأشجار تساقطت أوراقها وغدت جرداء، وأعشاش الطير فوقها مكشوفة للبرد والريح، كل شيء يبدو ناقصًا، مضى على وجودي في الفيلا أيام، لا نتحدث أنا وجدي، نعبر من جوار بعضنا إذا تقابلنا في المكان صدفة والصمت حائل بيننا، "صباح الخير" "مساء الخير" هذا كل شيء، وكأن هناك أمرًا نخجل من التحدث فيه، لكنّه في ذلك اليوم ناداني:

- لم لا نشرب معًا كوب شاي.

وبعد صمت طويل قال جدي: أريد أن أحدّثك في موضوع، بخصوص رغد.

وقتها قلت له: وأنا أيضًا أريد أن أحدثك في موضوع.

فقال: تكلّم أنت أولًا.

وتكلّمت: بعد أسبوع تقريبًا يبدأ موعد سباتك، هذه المرة لن أدعك تذهب، سوف تبقى في الفيلا، لن يقدروا على حبسك أو حبسي لأن ذلك سوف يحرك الرأي العام بقوة، ستأتي الصحافة لتصور الخبر، نحن إذا بدأنا بتلك الخطوة سوف يقلّدنا باقي النّاس، وذلك سوف يضع حدًّا لنظام السبات.

لم يجب، ولكن ذلك يعني أنّه موافقًا، أعرف جدي، ولكن أحيانًا.. صمته يقلقني، سألته:

- وما هو الموضوع الذي أردت أن تحدثني فيه.

- أثناء سباتك أخبرتني رغد في لحظة ضيق أن هناك رجلاً نصّابًا يطاردها، وأن اسمه أستاذ أمين، وأنّه عرف أنّها تزوجتك، وأنّها تعيش هنا، وقالت إنّ هذا الرجل هو صاحب المقهى الذي كانت تعمل به، لم أفهم منها لماذا يطاردها، ولماذا هو نصّاب، سألتها ولكنّها لم تجب، في ذلك الوقت أخذنا الحوار حتّى أخبرتها أنّك قد بعت شقّة والدك من أجل مساعدتها، حاولت أن أفهم منها لماذا قد يطاردها هذا الرجل، ولكنّها اكتفت بقول "لأنّه لص ومحتال" ولكنّي كنت أشعر أن هناك أمرًا تخفيه، هل تعرف شيئًا؟

- نعم، هناك قصّة، ولكنّها غير هامة الآن، ولست في حال يسمح لي أن أحكيها، أرجوك يا جدّي، فلنؤجّل الكلام في هذا الموضوع لوقت لاحق.

رأيت الفضول في عينيه، ولكنّي ألقيت الكلمات وذهبت مبتعدًا، لم أرد أن أكذب عليه، ولم أرد أن أحكي تلك القصة، هربت، وكنت أشعر بضيق شديد، لمّا طلعت غرفتي وجدتُ إعلانات عدّة لتلك اللعبة المرعبة التي كنّا نلعبها أنا وماريو في بداية تعارفنا، كانت الإعلانات تطاردني منذ أيام، حتّى شعرت برغبة في الدخول، ربما لكي أفرّغ بعض طاقة الغضب التي تملؤني، فارتديت نظارتي لأجد نفسي في ذلك العالم المظلم، مسوخ منزوعي الرؤوس يمرون سريعًا، وقصر مظلم مليء بالرموز، بلاطه الأبيض والأسود مليء ببقع الدماء المتناثرة، موتى من المشاهير عبر التاريخ، ومشاهير آخرين هم المسوخ أنفسهم يطاردونني، من الرؤساء والساسة والممثلين والمغنيين، شاشات تتحدث في كل مكان، وأعين في الحائط تتبعني أينما ذهبت، تطورت اللعبة كثيرًا عن المرة الأولى التي

لعبتها، وأصبحت أكثر رعبًا، وفجأة تأتيني رسالة "T.S يريد أن ينضم إليك" لم أفهم ولكني قبلت، ولم أجد أحدًا قد انضم، لم أبال، وجعلت أقاتل المسوخ وحدي، حتّى وجدت بالدماء اسمي مكتوب بلغة عربية على الحائط، ادخل هنا يا ياسين، ولمّا دخلت إذا بمسخ آخر يعطيني ظهره، اعتقدت أنّه وحش اللعبة، ولكن يأتيني إخطار بأنه T.S، ذلك الذي انضم إليّ منذ قليل، قُلت "مرحبًا" فأحدث صوتي دويًا مرعبًا في المكان، يستدير ذلك المسخ لأجد أنّه هو طاهر صامويل، نفس ملامحه ولكن جزء صغير من وجهه ممسوح تمامًا من الملامح، متضمنًا إحدى عينيه، قال بلغة عربية واضحة:

- ياسين، أخيرا نتحدّث وجهًا لوجه.

خلعت النظارة سريعًا، كمن أخرج رأسه من قلب ماء بارد، احتقن صدري بالهواء حتّى أعماقه، احتفظت بذلك الهواء داخلي قليلًا وكأنني نسيت كيف أخرجه، مشدوهًا يدق قلبي فأسمع دقّاته وكأنها طبول الحرب، تعرّق وجهي، وجعلت أفكّر هل هو فعلًا، ولماذا يختار هذه اللعبة ليكلمني من خلالها، هل أهرب؟ أم لا مانع من التجربة؟

أومأت برأسي مجيبًا على سؤالي الأخير وموافقًا عليه، تشجعت، وقررت المجازفة، ارتديت النظارة فوجدته في نفس مكانه، يبتسم نصف ابتسامة، شعره مطعم بضفائر صغيرة يترك بعضها منسدلة أمام كتفيه، خلفه شعار شركته، وباسطًا كفّيه في ثقة كأنّه يستقبلني، أو يرحب بي في بيّته، سألته: "من أنت، وماذا تريد؟"

أجاب بصوت يدوي في أعماقي:

- أنت تعرف من أنا، وأريد أن نلعب.

- تَلعب!

- لعبة تبدأ بالنقاش، أخبرك بوجهة نظري، وتخبرني بوجهة نظرك، إذا أقنعتك تنضم معي في الفريق، تهاجمني ولكن كما أريدك أن تهاجمني، وكذلك تهاجم أعدائي، وإذا أقنعتني سوف ألبّي لك ما تريد.

- وماذا لو لم يقنع أحدنا الآخر!

لمّا قلت ذلك ضحك، وقال:

- أنت متشائم، ولكن معك حق، ربما.. وحينها ستستمر الحرب بيننا، وأنا لا أريد هذا أبدًا، خطر عليك وعليّ، خطر كبير.

- لست ندًا لأدخل في حرب معك.

- إن لم تكن خصمًا قويًا لما لاعبتك، ثم لماذا تتوقع الحرب، الحرب بيننا لن تفيد الناس، أليس كل ما يهمك مصلحة الناس، وهذا ما يهمني، فلماذا لا نصل إلى اتفاق؟

- تعدني أن لا تكذب؟

- نحن رجال بالغين، سوف تعرف إذا كذبت، وعمومًا.. أعطيك وعدي، لا أحتاج إلى أن أكذب، والآن.. تبدأ أنت أم أبدأ أنا؟

قلت: تحدّث.

فابتسم في رضا، وبدأ يلقي ما عنده:

- في البداية، وحتّى أعطيك الثقة الكاملة، أعترف أنّك على حق في كل ما قلته عنّي، أنا من دبّر الأزمة الاقتصادية بالتعاون مع بعض المَكَرَة والدواهي، ولكنّها فترات الفوضى المضطربة، والتي تسبق عادة ولادة المجتمعات الجديدة.

رغم أنني كنت أعرف، إلا أني شعرت بصدمة، وقُلت بغضب شديد:

- ببساطة تعترف! والذين قتلتهم، والذين حرمتهم من الإنجاب، والذين ماتوا في مجاعاتك، أخبرني كيف ستعيدهم؟

- ركز في كلامي يا صديقي، واسمعه بعقلك أولا، أصبح عالمنا بحاجة إلى التشذيب، حتّى يستعيد قدرته على النمو بشكل صحيح، وغير عشوائي، مثل الشجرة التي يتم تشذيبها بقص أطرافها فتنضر أوراقها، منذ بداية الخلق والطبيعة تقوم من تلقاء نفسها بتلك العملية، ولكن الإنسان تحدى الطبيعة، بالتطور الطبي والقوة المفرطة، ورفع معدّل متوسط الأعمار إلى أقصى حد ممكن، لو تمنّى الإنسان فسيتمنى أن يعيش أبدًا، ليسعى في الأرض فسادًا، يمكنك أن تخمّن حجم الهرج لو كل البشر يعيشون إلى الأبد، أتفق معك أن الحروب تنشر الفزع والخوف وانعدام الأمان، ولكن حتّى الحروب أفادت البشرية بملايين القتلى، تخيّل هؤلاء لو عاشوا، تخيّل كم يصبح عدد أحفادهم اليوم، سيزداد عدد البشر مليارات على ملياراته، عدد لن يتحمله هذا الكوكب أبدًا، أقسم لك لولا الحروب لحلّت علينا تلك الأزمة ولكن بحق، لتصبح موجة مجاعات وكوارث ضاربة تهدد وجود البشر أجمعين، نحن نحفر قبورنا بأيدينا، وكيف للطبيعة أن تأخذ مجراها.. لكن إذا جئتك بفكرة أخرى، فكرة لتشذيب المجتمع وتطهيره من كل فائض بشري، والوصول إلى الإنسان المتفوق، الإنسان السوبر مان، ولكن ليس بالحرب وأهوالها، بل باستخدام سياسة التعقيم، والقتل الرحيم، دون أن نشعرهم بأي شيء، أرواح لا تستحق أن تحيا، مثل المتأخرين عقليا، وذوي الإعاقات، والمدمنين، والجهلاء، والمتسولين، والمتطرفين، سنجرد المجتمع من آفاته، نتخلّص من العناصر المنحطة ونخلّصهم من حياتهم الشقية والمتهالكة، ويجب أن تعرف أنه لسنا نحن من اختار لهم أن يكونوا العناصر المنحطة، بل هو حظهم التعيس، سوف نبقي على المفكرين والمتطورين عقلًا وهيئة وأخلاقًا، الذين حتمًا سيفيدون

البشرية، بدلا من أن تختار الطبيعة المتطورون في القوة والاستبداد، كن معي لنعطي فرصة لمن يستحق أن يعيش.. أن يعيش، ماذا ترى.

- وإن لم تنجح خطّتك ماذا ستفعل؟

- حينها ستكون الحرب، حرب كبرى، لن تتخيّل عواقبها، أعرف أن هذا مؤلم، ألم أخبرك أن المجتمع مثل شجرة سقيمة تحتاج إلى تشذيب، لكن إن لم تتعافى فلا سبيل إلا قطعها وإعادة إنباتها من جديد، أقسم لك أنني لا أريد الوصول إلى تلك النقطة، ولذلك جئت لأتحدّث معك، فلنترك مخططنا السلمي يستمر، إنها خطة عبقرية وقد عبرنا منها الجزء الأهم، ماذا تقول؟

لم أجد شيئًا أقوله، لست جاهزًا لذلك النقاش المباغت، كنت أعرف أنّه مخطئ، توجهاتي وثقافتي وأخلاقي تقودني أنّه على خطأ فادح، ولكن لم أعرف كيف أعبّر له عن ذلك، ولكي أترك لنفسي وقت للتفكير، بدأت بحجّة واهية:

- كيف تسمح لنفسك، مَن أعطاك الحق؟

أجاب سريعًا:

- أعطيت نفسي الحق لأنني أستطيع، فأصبح هذا واجب علي، لن آخذ رأي الجماهير بالطبع، إن الناس عاجزة عن التفكير العقلي، هذه هي سيكلوجية الجماهير، إنهم يبالغون في عواطفهم وانفعالاتهم ويتعاطفون مع الضعيف، لقد بنيت الحضارات ووجهت من قبل أرستقراطية مثقفة قليلة العدد، ولم تبن أبدًا من قبل الجماهير، فالحضارة -أي حضارة- تتطلب قواعد ثابتة ونظامًا محددًا، والمرور من مرحلة الفطرة إلى مرحلة العقل، والقدرة على استشراق المستقبل، ومستوى عالي من الثقافة، وكل هذه العوامل غير متوفرة للجماهير المتروكة لذاتها.

- أنت تطوّع الأفكار لصالحك، وتتلاعب بالكلام، لأن العالم الآمن لا يبنيه القتلة.

- مخطئ، إن العالم لا يبنيه إلا القتلة.

- انظر إلى نفسك، أنت لست إلا مجرد عنصري بنى أفكاره على رفض قبول الآخر، نقص في التفكير والتربية يخيفانك عن كل ما هو مختلف عنك، فلنتخيّل مثلًا لو قتلت ذوي الإعاقة، هل تظن كم ستيفن هوكينج ستقتل، وكم بيتهوفن، وكم جون ناش، هل سمعت عن هؤلاء، هل سمعت حتّى عن طه حسين أو الرافعي، بل أنت نفسك معاق ومتطرف، أنت خير دليل على أن كره الناس للناس هو انعكاس على كرههم لأنفسهم، لا أريد أن أتحدث فقط عن المعاقين، أي من هؤلاء العباقرة قد يكون ابنًا أو حفيدًا لأب جاهل، أو متأخر عقليا، أو مختلف عنك في العرق أو الدين، ولكن سيخرج منهم مَن هو أذكى منك قليلاً ليعرف أن الطريق لإنقاذ البشرية ليس في قتلها ولا قمعها، بل في الأخذ بيدها وإيجاد الحلول لمشاكلها مهما كانت، فينمو البشر ويزاد إبداعهم ومفكريهم، لتخضير الصحاري، أو ربما لاحتلال كواكب أخرى وتعميرها، لنصبح بعد عقود من الآن فخورين بما وصلنا إليه من حضارة، ونكف عن الشعور بالخزي مما ارتكبناه من جرائم ومذابح في حق أنفسنا، ونكف عن الشعور بالخزي من أمثالك من المفكرين.

بعد كلماتي الأخيرة بدأ الغضب والهياج على وجهه، وقال بلهجة هازئة:

- عربي غبي.. كنت أعرف أنّك سترفض، ولكن رفضك لن يغير أي شيء، سوف يشكرني البشر بعد ذلك.

- عربي!! ألم أقل إنّك تعاني نقص في التفكير والتربية يخيفانك عن كل

ما هو مختلف عنك، أليست هذه عقدة الأجنبي الصغير الذي يهدد في شمال إفريقيا بإحضار العربي إذا لم ينم بسرعة، أجبني، ألم نتفق على الحقيقة في تلك اللعبة الساذجة.

– نعم، هذه هي العقدة، مثل عقدكم ضد الأجانب، ودعني أخبرك أن جل العرب من ضمن الفوائض البشرية، وجاري تطهير الأرض منهم، لقد أعلنت حربًا لن تقدر على إيقافها، فأعد نفسك لتقابل إلهك عاجلًا وليس آجلا.

بعد ذلك اختفى تمامًا من اللعبة، نزعت نظارتي وكان عقلي منزعجًا ومرهقًا بشدّة من تلك المحادثة العجيبة، والتي حتّى الآن لا أصدّق حدوثها، هناك الكثير لأفكّر فيه، ولكن وجعًا في رأسي أخذني إلى الفراش، قررت النوم من شدة التعب والضيق، ولنؤجّل كل شيء إلى صبح مضيء.

4

استيقظتُ متأخرًا، كانت الفيلا هادئة تمامًا، وشمس ذلك اليوم مستترة خلف سحب رمادية ثقيلة، تململت في فراشي، ونهضت متثاقلًا، غسلت وجهي من نعاسه، ثم خرجت إلى ذلك، الهدوء تام، وكأنني وحيد في هذا العالم، كل شيء ساكن وقاتم، طرقت على جدي غرفته فلم يجب، ربما لازال نائمًا، الطقس هذا اليوم يجلب الخمول، اليوم على الجدول موعد لجمع العسل، فنزلت أتمم المهمة نيابة عن جدي، حتّى حركة النحل كانت هادئة في الفيلا، جلبت أدواتي واتجهت نحو المنحل، أخرجت نافث الدخان ووجّهته نحو أوّل خليّة تقابلني، ثم قمت بضخّه في الخلية، واكتشفت الكارثة!

هرع النحل من الخلية مترنّحًا، ثم فجأة تتساقط كل نحلة تلو الأخرى على الأرض من حولي، وكأنها سحابة تمطر نحلا، تنكمش كل نحلة على الأرض حول جسدها مقتولة، مئات الضحايا تتناثر حول الخلية وأسفل أقدامي، منهم من مات ومنهم من ينازع سكرات الموت في عذاب أليم، لم أتحمّل المشهد المروّع، خلعت الرداء الواقي من على رأسي وألقيته بعيدًا، فتحت الخلية فزعًا لأجدها مليئة بالقتلى، لم يبق فيها نحلة واحدة على قيد الحياة، حتّى الملكة الكبيرة كانت ترتعد أطرافها حتّى استقرّت حركتها وماتت أمام عيني، ومن الخلية تفوح رائحة الدخّان الغريبة، لابد أن أحدهم قد استبدله بمبيد قاتل سريع المفعول، ملأ جسدي الهلع

والذعر، ماذا أقول لجدّي، ثم لمحت في آخر الصف نافث الدخان الخاص بجدي ملقى على الأرض كالقتيل، أمام أكبر وأقدم خلية في المنحل كلّه، فذهبت عندها لأجد نفس المشهد يتكرر، ولكن عدد النحل المقتول كان أضعافًا، يملأ النحل الأرض أعلى التراب نقاط سوداء كالحصى متراكمين فوق بعضهم البعض، وأعلاهم ملكتهم العظيمة، التي نازعت الموت بجيوشها حتّى انقلبت، من الذي نفث الدخّان! لابد أن جدّي كان هنا، إنّه يحب أن يبدأ بتلك الخلية، حملتني أقدامي عدوًا نحو غرفته، ضربت الباب ضربًا مبرحًا وجعلت أصرخ مناديا فلم يجيبنِ، قتلني ما توقّعت قبل أن أراه، وركلت الباب بغضب شديد، فوجدت جدّي معلّقًا من رقبته في منتصف الغرفة، منتحرًا، مشنوقًا، مقتولًا، أيًا كان المسمى، فالنتيجة واحدة، لن أسمع صوت جدّي بعد اليوم، ولكن ذلك ما لم أستوعبه في تلك اللحظة، هرولت نحوه أصرخ وأناديه، "جدّي، انتظر يا جدي، سوف أنقذك" حملته من قدميه، حتّى أخفف من عقدة الحبل حول رقبته، ولكن حملي له قيّدني في مكاني، فلم أقدر على الذهاب بعيدًا حتّى أجلب ما أقطع به الحبل، بقيت واقفًا في مكانيً أحمله وأعجز عن تركه، وفي نفس الوقت أعجز عن التحرّك، مرتبكًا وحائرًا، أحدّثه مكررًا كلماتي "انتظر يا جدي، انتظر سوف أنقذك" لمحت الكرسي الملقى بعيدًا، ذلك الكرسي الذي لابد أنه ركله بقدمه قبل أن يشنق نفسه، كان بعيدًا، وأنا لا أستطيع أن أترك جدّي معلّقًا، فحاولت أن أجلب الكرسي بقدمي، محاولات متكررة، مع الحفاظ على الحبل مرتخيًا، ألمني ظهري من ثقل جدّي، والوقوف على قدم واحدة محاولا أن أجلب الكرسي بالأخرى، كنت ألمسه بأطراف أصابعي لكن لا أستطيع أن أقيمه، وفجأة تزحلقت

قدمي الأخرى، فسقطت على الأرض وأنا ممسكًا بجدي، سحبته لأسفل مع سقوطي فأزدت حمله على الحبل حملًا، لمّا انشد الحبل أصدر صوت فرقعة وكأنني أعدمت جدّي من جديد، أدركت هذه المرّة أنّه مات، فتركته يدور حول نفسه معلّقًا على الحبل، وأنا ساقط جواره على الأرض، أبكي، أبكي بصوت يدوي، حتّى جفّ حلقي وألمني ألما شديدًا من كثرة الصراخ والنحيب، لم أجهش بالبكاء هكذا في حياتي، حتّى وأنا طفل.

الفصـل العـاشر

1

أيام مضت على تلك اللحظة الكابوسية، اتصلت بالشرطة، والغريب أنّهم كانوا يشكّون في أمري أنني أنا من قتله، بدافع الورث أو ما شابه، امتلأ المكان بالمحققين والشرطيين، وحوصرت الفيلا، ولكنّي لم أكن في هذا العالم، أصابني اكتئاب شديد، ولمّا خرج ماريو من السبات وأخبرته بكل ما حدث، هدأت أحزاني قليلًا، الحزن في النفس يشبه القرحة على الجلد، في البداية تكون مؤلمة جدًا، وتنزف الكثير من الدماء، ثم بعد ذلك تجف تلك الدماء، وتترك غطاءً على القرحة يبدو واضحًا جدًا، ومع مرور الوقت يتقشّر هذا الغطاء تدريجيًا، حتّى تزول القرحة، ولكنّها غالبًا تترك علامة لن يلاحظها إلا من اقترب كثيرًا منّا، ومع الوقت، وإذا كثرت تلك العلامات، فإن شكل الإنسان قد يتغيّر تمامًا.

رأيت الحزن في أعين عم رمزي على صديقه، رأيت بكاءه ونداءه عليه "لا تتركني، لم يبق لي سواك، ماتت زوجتي وأبنائي، لقد أصابني الجنون ولم أرجع إلى عقلي إلا بعد رؤياك، لا تتركني يا صديقي العزيز".

بالطبع لم أسكت أبدًا على ما حدث، رغم كل شيء، كتبت مقالة طويلة جدًا أسرد فيها كل ما حدث، ولكن بعد أن اقتربت من الوصول إلى آخرها، وجدت فجأة الحروف تمسح أمام عيني، وكأن شيطانًا خفيًا ضغط على

زر المسح، جرّبت مرّة أخرى وحدث ما حدث، اعتقدت أنّه خلل في الموقع، فكتبت النص في مكان آخر ونشرته، فجعل يحمّل كثيرًا، ثم لم ينشر، وجاءتني رسالة أعلاه تقول "حول منشورك اليوم الساعة 12:01 ص، لا يمكن لأي شخص غيرك رؤية هذا المنشور، إذا طلبت إجراء مراجعة، فسنطلب من شخص آخر إلقاء نظرة أخرى على المنشور"

عدّلت في الكلمات، وجرّبت في أكثر من مكان، ولكن دومًا وبعد انتظار طويل ينتهي الأمر بالرفض، أصبحت حركتي خارج الفيلا محدودة جدًا، حتّى يتم انتهاء التحقيق في القضية، دخلت غرفة رنيم لأول مرّة من شهور طويلة، أتأمل الرسومات الطفولية التي رسمتها رغد لها في غرفتها، كم هي رائعة، ووجدت هناك هاتف رغد، فتّشت فيه قليلًا، محاولة أن أستعيدها ولو للحظات، لأكتشف بالصدفة هذا المقطع الذي صعقني، رغد جالسة أمام الكاميرا، تسوّي تسجيلًا لذلك الاعتراف الخطير:

"ياسين، أنت لا تعرف كم أحببتك، ولكن في كل مرّة أنظر إلى عينيك فيها يذبحني ضميري، لا أستطيع أن أبني حياتي معك على كذبة، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أعيش معك وأنت تعرف الحقيقة، والحقيقة أنني أيضًا لا أستحق حتّى الحياة، ولا أن أكون أمًّا لابنتك، عليك أن تجد من هي أفضل منّي لتكون أمًّا لأطفالك، أما أنا، فلست إلا لصّة، نعم، أقصد تلك السبائك التي أعطيتها لي، لم يسرقها أحد منّي، بل أنا من سرقتها منك، عشت حياتي أتنفّس الحوجة، ماذا تتوقع منّي، لم تتم معاملتي بلطف أبدًا إلا من أجل أغراض جنسية دفينة، كل الرجال هكذا، وربما أنا المعقّدة، نعم أنا كذلك، رأيت فيك مجرد ثري يشتريني ببعض الذهب في محاولة مهذبة للوصول إلى فرجي، وانتظرت محاولتك حتّى

أرفضها مثلما رفضت المئات من قبلها، وأما ذهبك فأنا أولى به، لم أتوقّع أن تطلب منّي الزواج، أرهقني طلبك، وكذلك أسعدني وأراحني، قلت لا بأس، لأجرّب، وبعد أن تزوجتك، واكتشفت طيبتك، حينها اكتشفت أيضًا كم أنا حقيرة، والآن لقد عرف أستاذ أمين مكاني، ربّاه كم خشيت تلك المواجهة، التي عاجلًا أم آجلًا ستكشف لك كذبتي، ثم أعرف بالصدفة من جدّك أنّك بعت شقّة أبيك حتّى تساعدني، أنا لا أستحق رجلاً مثلك، ولا أستحق أن أنجب لك طفلة، لن أعيش معك حياة مبنية على كذب وسرقة، اليوم سأذهب إلى السبات، ولكنّي لن أخرج منه، سوف أتجرّع هذا السم لأخلّصك منّي إلى الأبد، آسفة يا حبيبي"

واجترعت زجاجة السم كاملة أمام الكاميرا، ثم ينغلق الفيديو ويتركني مشدوهًا في مكاني.

تجمدّت، فغر فاهي، وهوت ذراعي، وسقط الهاتف منها، وبقيت هكذا متصلّبًا مصدومًا إلى أكثر من عشر دقائق، وعقلي يردد في نفسه حقيقة غير معقولة يأبى إدراكها، رغد هي التي قلت نفسها، وقتلت ابنتي معها.

2

لم أعرف ماذا أفعل، وكيف أتصرف، جسدي هائم بين أنحاء الفيلا مثل صرصور أصابه مبيد قاتل، كدت أُصاب بالجنون، لم أتوقع المزيد من الضربات الموجعة، لم يتوفر لي وقت حتّى لأحزن، ولكن.. لم يكن ذلك شيئًا مما هو آت، لمّا اتصلت تويا:

- هل فتحت الإنترنت.

- لا.. لمَ؟

- افتح حالًا، هناك فيديو منتشر يجب أن تراه.

- أعطني عنوانه.

- لا تحتاج إلى عنوان، افتح فورًا وسوف تجده أمامك.

وفتحت، متأهّب لمفاجأة جديدة، ولكنّها لم تكن جديدة، ولكن.. كانت مفاجأة، بل صفعة كبرى، هل تتخيلون ماذا وجدت؟! إنّه اعتراف رغد، منتشر وعليه عدد كبير من المشاهدات، لا أعرف كيف تسرّب إليهم، ولكنّه لم يكن كاملًا، بل مقصوص من سياقه، ومحذوف منه جمل عدّة، ليبدو الأمر وكأنني شريك معها في تلك السرقة، وأن حياتي معها مبنية على كذب وسرقة، وهي لا تتحمّل ذلك، ثم رغد وهي تنتحر، وعنوان الفيديو "الحقيقة وراء موت زوجة ياسين الكاذب".

التعليقات أغلبها تسب وتلعن في، "كنت أعرف أنّه كاذب" "طاهر صامويل بريء" وكل ما هو مثل ذلك، وهل تعتقدون أن هذا كل شيء، هل تعتقدون

أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، أبدًا.. لم تكن تلك الضربة القاتلة، وليس هذا ما جعل النّاس حول العالم يخرجون في مسيرات ضدي، وأن أعدادًا كبيرة من الجماهير تحاصر الفيلا، وترميني بالطوب والبيض بقوة لدرجة أن تتجاوز رمياتهم سور الفيلا الحديدي العالي، وتصل إلى نافذة غرفتي، ليس هذا ما يجعلني أكتب لكم قصّتي اليوم على هذا الورق وبأدقّ التفاصيل، وأقول لكم إنّهم يعبثون بالأحداث، ويشكلون الماضي على طريقتهم، ليس هذا، بل الضربة الأخيرة، ولم يكن هناك فارق زمني كبير بين الضربتين، بل كان في اليوم التالي، عندما فتحت الإنترنت لأجد مقطعًا آخر، هذه المرّة فيلم وثائقي كامل عنّي، يحمل حقائق عن حياتي، حقائق ومواقف عادية جدًا، ولكنّها بدت في هذا الفيلم كارثية، لأن مجرد ذكر جزء من الحقيقة الكاملة يعتبر تحريفًا لها، تجاوزت مدّة الفيلم النصف ساعة، ومشاهدات بالمليارات مع الموسيقى والمؤثرات، وتحت عنوان "حقيقة ياسين العسال".

يبدأ الفيلم بمشاهد سريعة من مقطع مصوّر لي بكاميرات المراقبة من استراحة عم عز عندما كنت أضربه، وأحطّم صاعق الحشرات وكل شيء في الاستراحة، ثم لقطة قريبة على وجهي الغاضب، لتتجمد الصورة ويكتب بخط مرتجف "حقيقة ياسين العسال" ويأتي المذيع الشهير الذي يعلّق على الفيديو متحدثًا ليقول عنّي إنني مجرد شاب نصاب، معقّد، مدمن، أسعى إلى زعزعة الاستقرار وبث الفتنة بين الناس، ويصاحب المقطع صور مختلفة لي تظهر على الشاشة، يقول إنني تم القبض عليّ مرتين بتهم مختلفة، وإنني متّهم بقتل جدي من أجل الورث، وإنني حاولت نزع الشريحة من قبل، وإننا كنّا أنا وجدي نبيع عسلًا مغشوشًا

ويسبب التسمم، ثم تأتي صور لدكان العسل وقد شمّعته الشرطة أيام مشكلة جدي وعم عز القديمة، عندما استغل عم عز سلطته في إغلاق المحل، ثم يأتي عامل في صرح السبات يتحدّث عنّي، يقول "جاءني ومعه صحفية للإدلاء بأي معلومات تضر بنظام السبات، وأخبرته أن لا شيء يدعو للقلق، لقد تهجّم علي، هذا الرجل غير طبيعي، ولولا أن هددته بأن أستدعي رجال الأمن لما تركني أبدا"

ثم قطع إلى مقطع مصوّر بكاميرات المراقبة وأنا أهدده وأمسكه من ياقته، وكانت إلى جواري تويا من زاوية لا تظهر وجهها، تذكّرت أن هذا العامل هو الذي استفذني وادّعى أنّه لا يتذكّرني في ذلك اليوم الذي كنت أبحث فيه عن رغد، ثم يضيف المذيع أنني قد تم تصويري من كاميرات المراقبة مرتين وأنا أتسلل في منطقة العمال المحظورة في صرح السبات، وأن ذلك ممنوع، ويعلّق على تهجمي على العامل قائلًا إن هذا السلوك العدواني ليس بجديد علي، وإنني تم تصويري أكثر من مرّة أتهجم على أناس آخرين، ثم يأتي المقطع كاملاً وأنا أتشاجر مع عم عز، وأنا ألقيه عبر الزجاج في مشهد درامي بطيء، يتم تكراره أكثر من مرّة، ثم وأنا أضرب صاعق الحشرات في الأرض مكررًا حتّى أحطّمه تمامًا، وأردف المذيع: "رغم كل ذلك لازال هناك بعض الجهلاء الذين يدافعون عنه ويعتقدون أنّه يقول الحقيقة"، ثم يكرر ذكر اسمي مع التأكيد على أنني شاب معقّد ومدمن وعدواني، مع صور قريبة لوجهي وأنا أصور نفسي عندما كنت أحقق في المشرحة على موت رغد، في ذلك الوقت لم أنم من أكثر من ثلاثة أيام، فكان عندي هالات سوداء تحت عيني كالمدمنين، استغلّها اللعين مع نبرتي الخاملة في الكلام ليدلل للناس على أنني

مجرد مدمن كاذب، ثم يعيد مقطع اعتراف رغد بالسرقة، واعترافها بأنها ستنتحر، ويكرره، ليقول إنني شريكها في الجريمة التي لم تستطع التعايش معها، وفجأة أجد تويا داخل المقطع، في لقاء صحفي تقول "كنت أشعر أن رغد هي التي سرقت تلك الأموال، أراد ياسين بمساعدة ماريو اختراق حساب صاحب المقهى لحذف هذا العقد الذي بينهما، ولكني رفضت" ينتهي قول تويا بقطع إلى ما يقوله أستاذ أمين صاحب المقهى "ظهر هذا الشخص في حياة رغد فجأة، وهي إحدى العاملات عندي في المقهى، كانت تترك عملها وتجلس معه دون إذن فهددتها بالخصم، بعد ذلك قاموا بسرقتي واختراق هاتفي ومسح البيانات من عليه" ثم لقاء مع ماريو يقول "نعم، لقد ساعدته في الوصول إليها، كما أنني ساعدته في حذف ذلك العقد، لأنني كنت أصدقه" ويعود ذلك المذيع ذو نبرة الصوت المستفزة، ليكرر سؤاله للناس كيف يتبعون من يبيع عسلًا مغشوشًا يصيب الناس بالأمراض على أنّه يخاف على الناس من الإصابة بالأمراض، إنه لص ومجرم و..و..و....، وهكذا جعل يخطب خطبة طويلة لا داعي لذكرها، بل أنني أغلقت المقطع قبل أن أكملها.

تذكّرت رسالة المقاومة الرقمية عندما حذروني وقالوا "لا تجعلهم ينكلون بسمعتك، لا تترك لهم فرصة لتمزيق صورتك البطولية لدى الناس، يشخصنون الأمور ويستخدمون سياسات مدروسة بعناية، سياساتهم أقذر مما تظن".

بعد أن أغلقت المقطع حطّمت تلك الشاشة اللعينة، وجعلت أصرخ وأنظر حولي في كل مكان، كنت أشعر أنني مراقب، فأردت أن أخبرهم أنني قد انهزمت، دخلت إلى الحمام أغسل وجهي محاولًا استعادة التركيز

والحفاظ على وعيي، لألاحظ بالصدفة تلك التفصيلة الصغيرة، والدقيقة جدًا، فاتسعت عيناي من الدهشة، وتصلّبت في مكاني.

3

وقعت عيني في الحمام على صندوق الغسيل، في قاع هذا الصندوق قليل من ملابس رغد، ظروف حملها ثم موتها جعلت تلك الملابس لم تغسل منذ وقت طويل، وظلّت هكذا ساكنة في قاع الصندوق، لمع في عيني لون أحد ثيابها المفضلة، كان يظهر بوضوح من أحد ثقوب الصندوق السفلية، ذلك ما جعلني أقلب الصندوق رأسًا على عقب في أرض الحمام، ناثرًا كل الثياب على الأرض المبتلّة، والتقطت هذا الثوب، ثوبها المفضّل، عندما أخبرتني أنّها حامل كانت ترتديه، أذكر عندما قالت لي ذلك الخبر احتضنتها بجنون، حتّى انسكب وعاء العسل على ملابسها، كنت أذكر تلك اللحظة جيدًا، وها هي بقع العسل الخام لازالت على نفس الثوب لم يغسل، كما هي، ولكن.. نفس هذا الثوب هو الذي كانت ترتديه في الفيديو الذي سجلت فيه الاعتراف، وكان نظيفًا.. كيف؟!! إن وقت تسجيل هذا المقطع بعد وقت طويل من حدوث تلك البقعة، فلم لا توجد البقعة في الفيديو، ولم لازال الثوب هنا في القاع مبقّعًا، سبقتني أقدامي عدوًا نحو هاتف رغد، الذي كان ملقى على الأرض منذ ذلك الحين، أعدت تشغيل المقطع وفي يدي الثوب، نفس الثوب ترتديه!!

دققت قليلًا في هذا المقطع، وتعجبت كيف لم ألاحظ ذلك في المرّات الأولى، ضربت رأسي بكفي مصدومًا، تلك ليست رغد، ليست رغد أبدًا، إنها نسخة ضوئية منها، خدعة بصرية متطورة، برنامج يحاكيها

بنفس هيئتها وطريقة كلامها وصوتها وحتّى ثيابها المفضّلة، وبينما أفكّر في ذلك فجأة يرن جرس الفيلا، من جاءني في منتصف الليل! نزلت مترددا، فتحت وكان أستاذ أمين بنفسه، استأذن بالدخول فسمحت له، لم أتحدث، لازلت مشدوهًا مما يحدث، أجلسته على مقعد في حديقة الفيلا وجلست إلى جواره، ودخل في الموضوع دون أي مقدمات، ليؤكد لي بكلامه ما كنت أخمنه:

"دكتور ياسين، أنا أعرف جيدًا ما تمر به الآن، ماتت زوجتك وهي حامل، ثم مات جدّك، والأن أنت مكروه من العالم كلّه لأنّك فقط كنت تحاول مساعدتهم، اعذرني على المجيء في هذا الوقت المتأخر، ولكني لم أستطيع النوم، لابد أنّك رأيت هذا الفيلم الوثائقي المنتشر عنك، والذي تحدّثت أنا فيه واتهمتكم بالسرقة، لقد تم تصوير هذا اللقاء معي قبل أن ينتشر فيديو رغد الذي تنتحر فيه وتعترف أنها سرقتني، لم أصدّق ما رأيت، كيف تقول رغد ذلك وأنا من سرقها، هذا حقيقي، اعذرني يا ياسين، لم أفعل ذلك بدافع السرقة، كنت أحب رغد، أعرف أنني رجل كبير ومتزوج، ولكني أحببتها، والحب لا يقيد بالأعمار، لم أرد أن تتركني، أقسم أنني كنت سأعيد لها تلك الأموال، لقد عاملتها بطريقة سيئة فقط لأنها كانت تجلس معك ذلك اليوم، لم أعترف لها بحبي هذا أبدًا.. لأنني لا أستطيع بسبب زواجي الآخر، ولأنها حتما سترفض، ولكن وجودها معي كان يطمئنني، أعرف أنني قذر، وأنني ارتكبت خطئًا فادحًا، ولكن لن أترك الأمر يصل إلى هذه الدرجة، التي كانت تتحدث في هذا المقطع ليست رغد، أعرف رغد جيدًا، ربما كانت تتحدث مثلها، وما قالته يشبه تمامًا ما قد تقوله رغد، أنّها معقّدة وأنّها لا تثق بالرجال، ولكن اعترافها بأنها هي

التي سرقت السبائك كان صدمة بالنسبة لي، لا شيء يدفعها إلى أن تقول ذلك، ولمّا دققت في ملامحها أدركت أن تلك صورة تحاكيها وليست هي، أنا أحفظ رغد الحقيقية، لم أكن أظن أن الأمر بهذه القذارة، وأن عواقبه بهذا الحجم، لقد تواصلت مع رغد فعلًا وأنت في السبات، لمّا عرفت أنها تزوجتك، قررت أن أكف عن مضايقتها، وأن أعطيها السبائك وأتركها وشأنها، ولكنها لم تعطني أي فرصة للحديث، وفي هذا اللقاء الصحفي اللعين، كيف أعترف أمام العالم أجمع أنني سارق، لقد ماتت، فلا ضرر من أن أستمر في كذبتي، ولكن لم أتحمل ذلك، اعذرني يا صديقي على كل ما فعلته لك، على أي حال، خذ هذا الذهب أنا لا أحتاجه، وكامل عزائي لما حدث معك، أقسم أنني متعاطف معك، وإذا أردت أي شيء منّي سوف أنفذه لك فورًا"

رغم أنني قد اكتشفت تقريبًا ما قاله قبل مجيئه بدقائق قليلة، ولكن شعرت بغضب شديد، وربما الغضب كان حبيس قلبي قبل أن يأتي، ولمّا رأيته انفجرت، أردت أن أفرغ تلك الطاقة الدفينة في وجهه، هو يستحق، لم يهمني أي شيء، قفزت عليه حتّى أسقطّه أرضًا وسقطت فوقه، ناولته ضربات في وجهه باليمين تلو اليسار، وكأن قبضتي كانت تسقط عليه من السماء، أصرخ وأنا أضرب وأشعر بعروقي تكاد تقفز من رقبتي من شدة السخط، عندما تغضبنا أشياء لا نطولها، فإننا بفعل الخطأ نصب هذا الانفعال في أول شيء تَطاله أيدينا، ونظن أنّه سبب كل شيء، دقائق قليلة حتّى أدركت نفسي وتمالكتها، فنهضت من فوقه، نظرت إلى وجهه الدامي تسيل الدماء منه في خطوط ثلاثة، جرح فوق حاجبه، وآخر من أنفه، والأخير من فمه، يجتمع الثلاثة عند ذقنه متسللين إلى رقبته ثم

يرويان عشب الفيلا في بقعة داكنة أكثر من ظلام الليل الذي يظللنا، أنفه وفمه وارمين، وخدّه أزرق محتقن، كنت أقف وأنظر إليه وأنفاسي تتلاحق، بعد ذلك اعتذرت له كالمجنون، اعتذرت له مثلما اعتذر لي:

- اعذرني، لم أقصد، أنا آسف.

ثم أمسكت المقاعد من حولنا وجعلت أقذفها بعيدًا وأنا أصرخ، ارتعب الرجل أثناء ذلك، قام وهرول بعيدًا، سقط أكثر من مرة وهو يهرب، رغم أنني لم أطارده، ثم خرج من الفيلا، ولم أره بعد ذلك أبدا.

4

استيقظت في صباح ذلك اليوم والشمس تداعب بشرتي، لأجد نفسي نائمًا في حديقة الفيلا، لم أذكر متى نمت، فتحت عيني على تلك الرسمة بسور الحديقة، جدارية جيرنيكا، رسمة بيكاسو بريشة رغد، رأيتها مقلوبة، وجعلت أتأملها وأنا نائم، وتخيّل إلي أنّها تتحرك، ذلك الحصان الضال الذي يحاول الهرب، نساء تصرخ، وخوار الثور الذي يرى النيران في عينيه ولا يستطيع فك نفسه، عالم مقلوب، جدو يحيى يموت، وعم أمين هو اللص، وطاهر أبعد ما يكون عن الطهر، ثم نهضت واقفًا، ألقيت نظرة على الفيلا وكأنني جئت من عالم آخر، وكأنني خرجت من بؤس هذه اللوحة إلى عالمي الأقل بؤسًا، شعرت براحة بعض الشيء، كانت المقاعد متناثرة في كل مكان، ألقيت نظرة حيث كنت أضرب هذا الرجل بالأمس، تشربت أرض الفيلا بركة الدم، ولكن العشب في هذه البقعة لازال يحتفظ بلونه القاتم، دليلًا على أن ما حدث لم يكن حلمًا، كان هناك مقعد وحيد في مكانه، ترنّحت نحوه، وجّهت وجهه نحو شعاع الشمس، وجلست، أغمضت عيني، وجعلت أستمع إلى صوت النافورة، والعصافير، واضعًا ذراعاي على ذراعي المقعد الخشبيتين المكسيتان بالجلد الأسود، هذا المقعد الذي أجلس عليه يشبه تمامًا الذي استخدمه جدّي لكي ينتحر، كيف؟! كيف علّق جدّي حبل المشنقة؟ كيف طال السقف؟ لم يكن هناك

سلّم بالغرفة، بالتأكيد لم يدخل السلم كي يعلق حبلًا ينتحر به، ثم يعيده في مكانه محافظًا على النظام، وقوف جدّي على الكرسي لن يجعله يطول هذا المسمار اللعين فوق النجفة، حتّى أنا لن أطوله، كان عليه أن يقف على ذراعي المقعد، تلك الأذرع الجلدية التي أتكئ عليها الآن، جدّي لا يستطيع الوقوف هكذا أبدًا، يحتاج هذا إلى رشاقة وخفة وزن، وأيضًا يحتاج إلى طول لا يمتلكه جدي، لابد أن هناك شخصًا آخر علّق هذا الحبل، ومن أين جاء هذا الحبل أصلاً، من الذي وضع المبيد السام في نافث الدخان، كان هناك شخص غريب بالفيلا ذلك اليوم، جدّي لم ينتحر، جدّي لم ينتحر، هناك من قتله بدم بارد، كانت نافذة غرفته مفتوحة، أحدهم قتله وهرب من النافذة، أحدهم كان بالفيلا، لقد قتلوه الملاعين، ليس هناك حل آخر، ذهبت مسرعًا إلى غرفة جدي لأتحقق مما كنت أفكر فيه، وقفت على هذا المقعد اللعين ولم أطل السقف أبدًا، لم أعرف ماذا أفعل، قررت أن أخرج لأقابل تويا وماريو، أن أحكي لهم كل شيء وأفكّر كيف نفضح هذا النظام، أعرف أن الكلام الذي قالوه بالفيديو مقتص من سياقه، وأنهما لم يتخيلا أن يخرج بهذا الشكل، ولكن على الباب وجدت مجموعة من الضباط يمنعونني من الخروج..

"ممنوع أن تخرج، هناك مظاهرات ضدك وهم قادمون على هنا، نحن نحاول الحفاظ على حياتك سيدي، هؤلاء القوم لو رأوك ربما يقتلوك، أرجوك ابقى هنا حتّى يهدأ الوضع"

أثناء حديثه سمعت ضوضاء، مئات من البشر قادمون نحو الفيلا، مظاهرات ضدي، "ياسين الكاذب العميل، اقتلوه، اقتلوه" لقد نجحوا من جديد في السيطرة على توجهات الجماهير، السلاح الأقوى، دخلت إلى

مبنى الفيلا، شاهدت تلك الأعداد، متى اتفقوا للخروج معًا، إنه الفرد عندما ينخرط في الجماعة، فيتحول جزءًا من القطيع، لقد كانوا يلقون البيض والحجارة على الفيلا، حاولت أن أتواصل مع أي شخص أعرفه، فوجدت أن الإنترنت قد انقطع تمامًا عن الفيلا، فضحكت، ضحكت كثيرًا من عبثية هذا العالم، إنهم يحاربون الناس بالناس، أصبح الوعي سلعة نادرة، ولكنّي تذكّرت كلمات رغد، هذا العالم لا يمكن العيش فيه من دون أن يعثر المرء على مهرب مؤقت، وقررت أن أهرب بالكتابة، على أمل ضعيف أن يقرأ الناس ما سأكتب، لأن القراءة هي الوعي، سوف أكتب بأدق التفاصيل حتّى لا أترك لهم فرصة اللعب بالأحداث، مثلما فعلوا في ذلك الوثائقي اللعين الذي قلب الناس ضدي، وكتبت بالأسلوب الروائي الذي تعلمته من بعض الروايات التي قرأتها عند ماريو، وأنا على يقين أن الناس سيصلها هذا الكتاب يوم ما، لأنذر قومًا ما أنذر آبائهم فهم غافلون.

أنا ياسين العسّال، بقي أسبوع على يوم سباتي، بهذه الجملة بدأت الكتاب، وفي الليلة الماضية انتهى ذلك الأسبوع، واليوم أكتب هذا الكلام، شريحتي تصدر صفيرها من أمس منذرة بموعد السبات، ثمانية أيام لا أفعل شيئًا إلا الكتابة، والآن.. وقد أنهيت عليكم كتابي، أعرف أنّهم سيأتون للقبض علي عاجلًا أم آجلًا، ما أشبه حالي بفأر في انتظار مصيره داخل مصيدة صدئة، ولكنّي لن أستسلم، سأهرب، على الأقل سأحاول، لقد فكّرت في حيلة طبية لنزع الشريحة دون أن أفقد الوعي، وأعرف طريقًا للخروج من الفيلا دون أن يلاحظني أحد من باب المخزن الخلفي، معي الذهب الذي أعطاه لي أستاذ أمين، ربما يتم القبض علي، وربما أعثر على قليل ممن

يناضلون ضد هذا النظام لأنضم إليهم، لا أعرف، ولكن على أي حال، أنا سعيد بأنني أتممت هذا الكتاب.

التجربة 41

حاولت مرات عدة أن أرسل لحضرتك هذه الرسالة، التي عثرت عليها في الفيلا بعد اختفاء ياسين بأيام قلائل، سوف تفهم من هو ياسين إذا قرأت الملف المرفق، لن يتسنى لي الوقت لأختبر هل تحققت تجاربي الأخيرة أم لا، لأنهم قد علموا أنني عثرت عليها، وأنني حاولت نشرها على مواقع التواصل بوسائل شتى، ولكن سرعان ما تم حظرها، لم أنم منذ أيام، كنت أحاول أن أطوّر وأضيف بعض الأفكار الجديدة في المشروع الذي أعمل عليه، غدًا يوم سباتي ولا أحد يعلم ما يمكن أن يحدث، أرسل لحضرتك تلك الرسالة وأنا موقن تمام اليقين أنك سوف تجيد التصرف بها، ولذلك اخترتك أنت شخصيًا، لأنني أثق بأنك سوف تصدقني رغم غرابة ما أقول، وأرى أنّك الشخص المناسب في الزمن المناسب، لقد قرأت أغلب رواياتك، وأحببتها كثيرًا، والحقيقة أنني قرأت لك ما لم تكتبه بعد من روايات، وربما ما لم تفكر فيه بعد (مثل إديوكتيتس و 18-81 والدولفين) وأعتقد أنك الآن تكتب رواية اسمها (هومو)، أتمنى أن يكون هذا دليلاً كافيًا على صدقي، وأنني حقًا أراسلك من المستقبل، أبشرك بأن القادم من أفكارك سوف يكون مذهلاً، وأوصيك بنشر هذه القصة حتى تغير مستقبل أحفادك، وربما أراسلك مرّة أخرى إن حييت وجدٌ جديد

– مرسل إلى الكاتب: ضياء الدين خليفة – مراسلك من المستقبل: ماريو.

مع خالص الشكر

كلمة للمؤلف

نسعى إلى أن نكون في تواصل دائم مع القراء ومعرفة آرائهم وتعليقاتهم كلما أتيح الوقت..

للتواصل مع الكاتب:

فيسبوك: fb.com/diaa.eldeen.315

انستجرام: dia2__eldeen

واتس آب: 01226497082

(الأغاني المكتوبة في الرواية أو التي تم الإشارة إليها "انشر سلام بين البشر - بيقولو شاب - الصحبة" متوفرين الآن على SoundCloud و Youtube غناء محمود صيام Semo Siam مع باند صفصافة، شكر خاص للصديق العزيز محمود صيام، وللشعراء ماجد سراج وأحمد علاء علي)

رواية

GRAVE NEW WORLD

مقابر الأحياء



سيأتي يوم أكيد وتلمس فيه أصابع تلك الصفحات، ويقرأ أحدهم تلك الكلمات، ولا يهم متى، ولا يهم أين سأكون في ذلك الحين؛ ربما أكون مسجونًا أو مقتولا، أو تجدونني أنا نفسي أنفي ما تقرأه اليوم على لساني في تلك الصفحات، لأنهم سوف يرغمونني على ذلك، ولكن أريدك في النهاية أن تعمل عقلك، وأن تحكم أنت بنفسك أين يمكن أن تكمن الحقيقة، ثم تنشر هذا الكتاب الذي أنت بصدد أن تقرأه بأي وسيلة، لأن أبعد وسائل النشر عن أيديهم هو الكتاب، ذلك لأنهم يعلمون أن الناس لا يقرؤون.

ديستوبيا خيال علمي تدور في مستقبل قريب تكشف سياسات عالمية خطيرة أدت إلى ظهور نظام عالمي جديد بشروط جديدة.

تصميم الغلاف: إسلام أحمد



إبداع